الحسن والحسين

رضي الله عنهما

سيدا

شباب اهل الجنة

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والاعلام

اسم الكتاب : الحسن والحسين

(رضى الله عنهما)

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٥

الناشر : مركز الراية للنشر والإعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

الاشراف والمتابعة : كريم أحمد فكرى .

رقم الإيداع : 4979/2005

الترقيم الدولى : 977.354.107.X

المقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله رسول الله ومصطفاه وعلى آله وصحبه ومن ولاه .

وأشهد أن لا إله إلا الله أذهب عن أهل البيت الرجس وطهرهم تطهيراً . وجعلهم القدوة للناس بعد الرسول الأعظم والنبى الأكرم وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه وحبيبه.

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب فى سيرة الإمامين الحسن والحسين أبناء السيدة فاطمة بنت محمد رسول الله صلوات ربى وسلامه على رسولنا ورضى الله عن الحسن والحسين وجميع آل البيت والأصحاب وأمهات المؤمنين.

وسيرة الإمامين الحسن والحسين من أعظم السير كيف لا وهما الشقيقان والحفيدان والحبيبان لرسول الله ﷺ وأبناء السيدة الزهراء وأبوهما على بن أبى طالب الذى قال له الرسول ﷺ أنت منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى .

يستعرض سيرة الإمام الحسن وسجاياه وتقلده للخلافة وصلحه مع معاوية واستشهاده مسموماً .

ويستعرض سيرة الإمام الحسين ومبايعته بالخلافة وسيره إلى العراق ومقتله فى كربلاء مع مجموعة كبيرة من آل البيت من أبنائه وأبناء أخيه وأبناء عمومته مظلومين فلعن الله من قتلهم ورضى عن آل البيت ومحبيهم .

لقد كانت مأساة كربلاء ومذبحتها حدثاً مروعاً أدى بعد عقود إلى زوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وانتقالها الرهيب من الأمويين وتم الانتقام من قتلة الحسين وقتلهم ومازال الحزن يتجدد على مقتل الحسين رضى الله عنه وجمعنا فى مستقر رحمته مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

الحسن بن على بن أبى طالب
ر ضى الله عنهما

التعريف بـه :

الحسن بن على بن أبى طالب -رضى الله عنه-، أبو محمد، سبط رسول الله ﷺ وريحانته، وآخر الخلفاء بنصه.

والحسن والحسين اسمان من أسماء أهل الجنة، ما سمعت العرب بهما فى الجاهلية.

ولد الحسن -رضى الله عنه- فى نصف رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وروى عن النبى ﷺ أحاديث، وروت عنه عائشة -رضى الله عنها- وخلائق من التابعين ... منهم ابنه الحسن وأبو الحوراء ربيعة بن سنان، والشعبى، وأبو وائل، وابن سيرين.

كان الحسن شبيها بالنبى ﷺ .. وعق عنه يوم سابعه .. وحلق شعره وأمر أن يتصدق بزنة شعره فضة.

والحسن هو خامس أهل الكساء.

قال أبو أحمد العسكرى : لم يكن اسم الحسن يعرف فى الجاهلية.

قال المفضل : إن الله حجب اسمى الحسن والحسين حتى سمى بهما النبى ﷺ ابنيه الحسن والحسين.

أخرج البخارى عن أنس، قال : قال : لم يكن أشبه بالنبى ﷺ من الحسن بن على.

أخرج الشيخان عن البراء قال : رأيت النبى ﷺ والحسن على عاتقه وهو يقول : «اللهم إنى أحبه فأحبه».

أخرج البخارى عن أبى بكرة قال : «سمعت النبى ﷺ قال : «سمعت النبى ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة يقول : «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين».

أخرج البخارى عن ابن عمر : أن النبى ﷺ قال : عن الحسن والحسين: «هما ريحانتاى من الدنيا».

ما قاله الرواة :

- البشـــرى :

فى ليلة النصف من رمضان سنة ٣ هـ كان مولد أول مولود ذكر، ولد فى أشرف بيت عربى عريق فى النسب والعزة.

فمن بيت أذن الله به أن يرفع ويذكر فيه اسمه، استقبل الرسول ﷺ نبأ مولد هذا الحفيد الذكر.. إنه حفيده الأكبر.. سيد شباب أهل الجنة .. الحسن بن على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء - رضى الله عنهم أجمعين.

- السعـادة :

فى سعادة بالغة أسرع النبى ﷺ إلى بيت ابنته فاطمة وزوجها الإمام على -رضى الله عنهما- واستقبل بيديه الشريفتين، حفيده بكل فرح وسرور ... وأذن رسول الله ﷺ فى أذنه : «الله أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله».

- **الاســـم :**

سأل النبى ﷺ الإمام عليا .. هل سميت الوليد؟ فقال -رضى الله عنه- : ما كنت لأسبقك يا رسول الله، وما هى إلا لحظات حتى نزل الوحى على النبى الكريم ﷺ، قال جبريل الأمين : «سمه حسنا، وقد كان. ولم يكن هذا الاسم معروفا من قبل فى الجاهلية.

- **العطـــاء :**

تقول إحدى الروايات : إن رسول الله ﷺ عق عن المولود بكبشين أملحين .. وأعطى القابلة فخذا .. ودينارا وقال لفاطمة : « يا فاطمة احلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره فضة».

- **الختـــان :**

أجرى رسول الله ﷺ للحسن الختان فى اليوم السابع من ولادته.

قالوا : إن ختان الطفل فى ذلك الوقت أطيب له وأطهر.

عن رسول الله ﷺ قال : «طهروا أولادكم يوم السابع فإنه أطيب وأطهر وأسرع لنبات اللحم.. وإن الأرض تنجس من بول الأغلف أربعين يوما».

من أخلاق الإمام الحسن
-رضى الله عنه-

يروى أنه -رضى الله عنه- حفظ فى طفولته أحاديث عن جده ﷺ أخذها عنه الرواة.

لازم الحسن والده الإمام عليا -كرم الله وجهه- وحفظ عنه وتعلم منه ونهل من ينبوعه الذى لا آخر له، فأصبح بذلك عالما، معلما.

أخذ عنه الخاصة والعامة حتى أصبح إمام الأئمة .. ومعلم المعلمين.

لقبه جده رسول الله ﷺ بالسيد. فقال عنه : «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين».

كان حلو الحديث .. عف اللسان .. لا يتلفظ بلفظ جارح ولا بكلمة نابية.

كان صاحب هيبة ووقار .. يحسب حساب هيبته ووقاره السلطان فى عرشه .. حتى لقد قال معاوية : والله ما رأيته جالسا عندى إلا خفت مقامه.

كان الحسن -رضى الله عنه- يواسى المنكوب فى ساعة العسرة وإن تباعد عنه أحباؤه .. فقد خرج مع أبيه وأخيه يودع الصحابى الجليل أبا ذر -رضى الله عنه- مما أثر فى نفسه فخاطبهم قائلا : رحمكم الله أهل بيت النبوة، ما لى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم، إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

- رجل إدارة وسياسة :

كان الإمام الحسن -رضى الله عنه- على قصر عهده بالخلافة .. بعد مقتل أبيه الإمام على -رضى الله عنه وكرم الله وجهه- رجل إدارة وسياسة، بلغ كل الدقة فى تصريف أمور المسلمين ... حتى أن الصلح الذى «حاكه» على معاوية كان أداته الجبارة للقضاء على خصومه «فى التاريخ» دون أي مساومة على بيعة أو خلافة أو مال .. فكانت كل خطواته، بإيجابياتها وسلبياتها، مخفقا كان أو منتصرا آية من آيات عظمته التى جهلها الناس وظلمها المؤرخون.

- الحسن رجل سلام :

يخطئ من يظن أن الإمام الحسن هو الذى طلب الصلح مع معاوية ابن أبى سفيان ... بل الحقيقة هى عكس ذلك .. فمعاوية هو الذى طلب الصلح ... وقد قال الإمام الحسن فى خطبة له بالمدائن : «... ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة» .. وقد طلب معاوية الصلح بعد أن اشترى ذمم قادة جيش الحسن فى العراق وغيرها من الأمصار والولايات .. وحبك المؤامرة حول الإمام حتى أنه أصبح وقد وجد نفسه غير مطاع فى جيشه وقد بات يرى نفسه لا تنفذ أوامره فى جنوده بما فعلته الأراجيف والإشاعات التى أطلقها معاوية ضمن خطته لتطويق الإمام وحصاره حتى أصبح يخشى على نفسه من الاغتيال.

على أن نصوص معاهدة الصلح التى أبرمت بينهما تدل على حنكة الإمام وبُعد نظره.

يقول التاريخ إن مقياس عظمة الشخصيات التاريخية هو موقفهم من شروطهم التى يأخذونها على أنفسهم باختيارهم، وكون معاوية لم يف بشروط تلك المعاهدة، ونكث عهده مع الإمام .. فليس ذلك عيبا فى الإمام .. ولكنه عيب معاوية.

لقد أغرى الإمام الحسن معاوية بالصلح معه، وأخلى له الميدان وأسلم له الأمر وأنهى الخصومة ليكشفه، ويراه الناس على حقيقته، وقد وضح ذلك جليا وفورا.

يقول معاوية فى جمع غفير من المسلمين : أنا ما قاتلتكم لتصمدوا وتضلوا، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم .. وقد أعطيت الحسن شروطا كلها تحت قدمى.

لقد كان ذلك الصلح سهما أطلقه الإمام الحسن أصاب به معاوية فطار عنه غشاؤه الصفيق .. وبانت حقيقته ومعدنه أمام المسلمين .. لأنه بالصلح كانت لديه حرية الحركة .. فقتل خيار صحابة رسول الله ﷺ وقتل آل بيت النبى ﷺ، وأجبر البقية الصالحة من أولاد المهاجرين والأنصار على أخذ البيعة لابنه يزيد .. ثم ما كان بعد ذلك من قتل يزيد للحسين -رضى الله عنه- مما عجل بالقضاء على الدولة الأموية.

- السلام فى دم الحسن :

روى عن الإمام الحسين بسؤاله الإمام الحسن حينما تعاطى السم أن يسمى له من الذى سمه، فقال له : لتقتله ؟ فقال : نعم. فقال : ما أنا بمخبرك، إن يكن صاحبى الذى أظن أشد نقمة .. وإلا .. فما أحسب أن يقتل بى برىء.

- السلام .. والكف عن سفك الدماء :

قد يظن بعض الناس أن الإمام الحسن سالم معاوية لأنه خالف أباه وجنح إلى السلم ولكن للإنصاف نقول : إنه إنما سالم معاوية وتنازل عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين من جهة، ولأنه كان قد فقد الأمل فيمن حوله من الناس عندما أدرك بفراسته أن معاوية قد اشتراهم بماله وترغيبه بتنصيبهم فى وظائف بالولايات والأمصار المترامية الأطراف للدولة الإسلامية الكبيرة .. وأنه حين يحارب معاوية فسيكون وحده دون أنصار ..

وقد تحققت ظنون الحسن هذه بعد موته .. وحين أرسل أهل الكوفة إلى الإمام الحسين ليكون بينهم ويبايعوه خليفة للمسلمين ضد يزيد بن معاوية ... وحينما جاء إليهم كانت مذبحة كربلاء التى لم يقف فيها معه أحد وتركوه وأهله ذبيحة سائغة ليزيد وشيعته .. فما كان أكثر بعد نظر الإمام الحسن – رضى الله عنه وأرضاه –.

من البداية إلى النهاية

كان رسول الله ﷺ يحبه حبا شديدا، حتى كان يقبل زبيبته وهو صغير (الزبيبة قرحة سوداء تظهر على الجبين) وربما مص لسانه وداعبه.

ثبت فى الحديث أنه -عليه الصلاة والسلام- بينما هو يخطب إذ رأى الحسن والحسين مقبلين فنزل إليهما فاحتضنهما وأخذهما معه إلى المنبر وقال : «صدق الله» :

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥)﴾ [التغابن].

وقال : إنى رأيت هذين يمشيان ويتعثران، فلم أملك أن نزلت إليهما، ثم قال : إنكم عن روح الله وإنكم لتبجلون وتحببون .

ثبت فى صحيح البخارى : أن أبا بكر صلى بهم العصر، بعد وفاة رسول الله ﷺ بليال، ثم خرج هو وعلى يمشيان فرأي الحسن يلعب مع الغلمان فاحتمله على عنقه وجعل يقول : «بأبى شبيه بالنبى ليس شبيها بعلى». قال : وعلى يضحك.

يقول أبو جحيفة : رأيت النبى ﷺ وكان الحسن يشبهه.

كانت فاطمة تداعب الحسن بن على وتقول : «بأبى شبه النبى ليس شبيها بعلى».

يقول على: الحسن أشبه برسول الله ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه برسول الله ما أسفل من ذلك، وقال: كان الحسن أشبه برسول الله من وجهه إلى سرته وكان الحسين أشبه الناس به، ما أسفل من ذلك.

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال للحسن ابن على . «اللهم إنى أحبه فأحبه وأحب من يحبه».

قال أبو هريرة : «ما رأيت الحسن إلا دمعت عينى أو بكيت».

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من أحب الحسن والحسين فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى».

ورد عن عائشة وأم سلمة، أن رسول الله اشتمل على الحسن والحسين وأمهما وأبيهما فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا».

قال رسول الله ﷺ : «من سره أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسن بن على».

وقال رسول الله ﷺ : «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما».

فى حديث عبد الله بن شداد عن أبيه : أن رسول الله ﷺ صلى بهم إحدى صلاتى العشاء فسجد سجدة أطال فيها السجود فلما سلم قال الناس له فى ذلك فقال : «إنى ابنى هذا -يعنى الحسن- ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته».

قال الترمذى عن ابن الزبير عن جابر قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو حامل الحسن والحسين على ظهره وهو يمشى بهما على أربع، فقلت : نعم الجمل جملكما. فقال : نعم العدلان هما.

عن أبى هريرة قال : نظر رسول الله ﷺ إلى على وحسن وحسين وفاطمة فقال : «أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم».

عن المقداد بن معدى كرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحسن منى والحسين من على» أى الحسن شبيها بى والحسين شبيها بأبيه.

أخرج الترمذى والحاكم عن أبى سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله ﷺ : «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة».

أخرج الترمذى عن أسامه بن زيد قال : «رأيت رسول الله ﷺ والحسن والحسين على وركيه فقال : «هذان ابناى وابنا ابنتى، اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما».

أخرج عن أنس قال: سئل النبى ﷺ : أى أهل بيتك أحب إليك ؟ قال: «الحسن والحسين».

أخرج الحاكم عن ابن عباس قال : أقبل النبى ﷺ قد حمل الحسن على رقبته فلقيه رجل فقال : نعم المركب ركبت يا غلام .. فقال النبى ﷺ «ونعم الراكب هو».

أخرج ابن سعد عن عبد الله بن الزبير قال : أشبه أهل النبى ﷺ به وأحبهم إليه الحسن بن على .. رأيته يجئ وهو ساجد فيركب رقبته أو قال ظهره .. فما ينزله حتى يكون هو الذى ينزل .. ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر.

وأخرج ابن سعد عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : كان النبى ﷺ

يدلع لسانه للحسن بن على فإذا رأى الصبى حمرة اللسان يهش إليه

وأخرج الحاكم عن زهير بن الأرقم قال : قام الحسن بن على يخطب .. فقام رجل من أزد شنوءة .. فقال : أشهد لقد رأيت النبى ﷺ واضعه فى حبوته وهو يقول : «من أحبنى فليحبه، وليبلغ الشاهد الغائب، ولولا كرامة رسول الله ﷺ ما حدثت به أحدا.

كان الحسن بن على -رضى الله عنه- له مناقب كثيرة : كان سيدا حليما، ذا سكينة ووقار وحشمة، جوادا، ممدوحا، يكره الفتن والسيف، تزوج كثيرا ، وكان يجيز الرجل الواحد بمائة ألف.

أخرج الحاكم عن عبيد بن عمير قال: لقد حج الحسن خمسا وعشرين حجة ماشيا، وإن النجائب لتقاد معه.

- الخلق الطيب :

أخرج ابن سعد عن عمير بن إسحاق قال :

«ما تكلم عندى أحد كان أحب إذا تكلم ألا يسكت من الحسن ابن على وما سمعت منه كلمة فحش قط إلا مرة واحدة».

وما هى هذه المرة الواحدة ؟

كان بين الحسن وعمرو بن عثمان خصومة فى أرض، فعرض الحسن أمرا لم يرضه عمرو .. فقال الحسن : فليس له عندنا إلا ما رغم أنفه، قال : فهذه أشد كلمة فحش سمعتها منه.

- **إذا نطق السفيه :**

أخرج ابن سعد عن عمير بن إسحاق قال : كان مروان أميرا علينا، فكان يسب عليا كل جمعة على المنبر يقول له : بعلى وبعلى وبعلى وبك وبك، وما وجدت مثلك إلا مثل البغلة يقال لها : من أبوك ؟ فتقول : أمى الفرس، فقال له الحسن : ارجع إليه فقل له : إنى والله لا أمحو عنك شيئا مما قلت بأن أسبك، ولكن موعدى وموعدك الله، فإن كنت صادقا جزاك الله بصدقك وإن كنت كاذبا فالله أشد نقمة.

وأقبل عليه مروان الذى كان بينه وبين الحسن كلام .. أقبل عليه مروان، فجعل يغلظ له .. والحسن ساكت .. فامتخط مروان بيمينه .. فقال له الحسن : ويحك ؟ أما علمت أن اليمين للوجه .. والشمال للفرج؟ أف لك .. أف لك .. فسكت مروان.

أخرج ابن عساكر عن جويرية بن أسماء قال : «ولما مات الحسن بكى مروان فى جنازته .. فقال له الحسين أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه ؟

فقال : إنى كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا .. وأشار بيده إلى الجبل .. حقا لقد كان حليما كما الجبل.

قيل للحسن بن على : إن أبا ذر يقول : الفقر أحب إلىّ من الغنى والسقم أحب إلىّ من الصحة .. فقال : رحم الله أبا ذر .. أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختارها الله له وهذا حد الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء.

وتحققت المعجزة النبوية

ولى الحسن الخلافة بعد قتل أبيه بمبايعت أهل الكوفة .. فأقام بها ستة أشهر وأياما،، ثم سار إليه معاوية .. فأرسل إليه الحسن يبذل له تسليم الأمر إليه .. على أن تكون له الخلافة من بعده .. وعلى أن لا يطالب أحدا من أهل المدينة والحجاز والعراق بشىء مما كان أيام أبيه، وعلى أن يقضى عنه ديونه .. فأجابه معاوية إلى ما طلب .. فاصطلحا على ذلك فظهرت المعجزة النبوية فى قوله ﷺ : يصلح الله به بين فئتين من المسلمين .. ونزل له عن الخلافة.

يقول البلقينى عن نزوله عن الخلافة .. التى هى أعظم المناصب .. والتى تعد أعظم الوظائف : وكان نزوله عنها فى سنة إحدى وأربعين فى شهر ربيع الأول .. وقيل الآخر .. وقيل فى جمادى الأولى فكان أصحابه يقولون له : يا عار المؤمنين ، فيقول الحسن : « العار خير من النار» وقال له رجل : السلام عليك يا مذل المؤمنين. فقال : لست بمذل المؤمنين ولكن كرهت أن أقتلكم على الملك.

- **عطـــاء :**

أخرج البيهقى وابن عساكر عن طريق أبى المنذر هشام بن محمد عن أبيه قال : أضاق الحسن بن على .. وكان عطاؤه فى كل سنة مائة ألف، فحبسها عنه معاوية فى إحدى السنين .. فأضاق إضاقة شديدة فقال : فدعوت بإداوة لأكتب إلى معاوية لأذكره نفسى. ثم أمسكت فرأيت رسول الله ﷺ فى المنام .. فقال : « كيف أنت يا حسن؟

قال حسن : بخير يا أبت .. وشكوت إليه تأخر المال عنى.

فقال : أدعوت بإداوة لتكتب إلى مخلوق مثلك تذكره ذلك ؟

فقلت : نعم يا رسول الله .. فكيف أصنع؟

فقال ﷺ : قل اللهم اقذف فى قلبى رجاءك واقطع رجائى عمن سواك، حتى لا أرجو أحدا غيرك .. اللهم وما ضعفت عنه قوتى، وقصر عنه عملى، ولم تنتبه إليه رغبتى .. ولم تبلغه مسألتى ولم يجر على لسانى مما أعطيت أحدا من الأولين والآخرين من اليقين فخصنى به يا رب العالمين».

قال الحسن : فوالله ما ألحجت به أسبوعا حتى بعث إلىّ معاوية بألف ألف وخمسمائة ألف.

فقلت : الحمد الله الذى لا ينسى من ذكره، ولا يخيب من دعاه .. فرأيت النبى ﷺ فى المنام .. فقال :

- يا حسن كيف أنت ؟ قلت : بخير يا رسول الله .. وحدثته بحديثى، فقال :

- يا بنى .. هكذا من رجا الخالق، ولم يرج المخلوق.

- السـلام :

أخرج الحاكم عن جبير بن نفير قال: قلت للحسن : إن الناس يقولون: إنك تريد الخلافة .. فقال :

قد كانت جماجم العرب فى يدى يحاربون من حاربت ويسالمون من سالمت، فتركتها ابتغاء وجه اله وحقنت دماء أمة محمد ﷺ.

- النهايــة :

توفى الحسن -رضى الله عنه- بالمدينة مسموما.

أخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله بن طلحة قال : رأى الحسن كأن بين عينيه مكتوبا : ﴿قل هو الله أحد﴾ فاستبشر به أهل بيته .. فقصوها على سعيد بن المسيب فقال : إن صدقت رؤياه فقل ما بقى من أجله، فما بقى إلا أيام حتى مات.

- الوفــاة :

لما حضرت الحسن الوفاة جزع .. فقال له الحسين : يا أخى ما هذا الجزع ؟ ،، إنك ترد على رسول الله ﷺ وعلى علىٍّ وهما أبواك .. وعلى خديجة وفاطمة وهما أماك وعلى القاسم والطاهر وهما خالاك، وعلى وحمزة وجعفر وهما عماك .. فقال له الحسن : أى أخى .. إنى داخل فى أمر من أمر الله تعالى لم أدخل فى مثله وأرى خلقا من خلق الله لم أر مثلهم قط.

* وقال الحسن لأخيه الحسين عند احتضاره : «يا أخى إن أباك استشرف لهذا الأمر، فصرفه الله عنه ووليها أبو بكر.. ثم استشرف لها وصرفت عنه إلى عمر، ثم لم يشك وقت الشورى أنها لا تعدوه، فصرفت عنه إلى عثمان، فلما قُتل عثمان بُويع على، ثم توزع حتى جرد السيف فما صفت له ،،، وإنى والله ما أرى أن يجمع الله فينا النبوة والخلافة، فلا أعرفن ما استخلفك سفهاء الكوفة فأخرجوك.

وقد كنت طلبت من عائشة -رضى الله عنها- أن أدفن مع رسول الله ﷺ .. فقالت : نعم، فإذا مت فاطلب ذلك إليها .. وما أظن القوم إلا سيمنعوك فإذا فعلوا فلا تراجعهم.

فلما مات أتى الحسين إلى أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- .. فقالت : نعم وكرامة، فمنعهم مروان ،، فلبس الحسين ومن معه السلاح حتى رده أبو هريرة ثم دفن بالبقيع إلى جنب أمه -رضى الله عنها-.

عن أبى إسحاق ، عن حارثة، عن على أنه خطب، وقال : إن الحسن قد جمع مالا وهو يريد أن يقسمه بينكم .. فحضر الناس .. فقام الحسن .. فقال : إنما جمعته للفقراء .. فقام نصف الناس.

قال رجاء : إنه كان مبادرا إلى نصرة عثمان، كثير الذب عنه .. بقى فى الخلافة بعد أبيه سبعة أشهر.

قال أبو هارون : انطلقنا حجاجا، فدخلنا المدينة، فدخلنا على الحسن فحدثناه بمسيرنا وحالنا .. فلما خرجنا، بعث إلى كل رجل منا بأربعمائة، فرجعنا .. فأخبرنا بيسارنا فقال :

لا تردوا على معروفى .. فلو كنت على غير هذه الحال، كان هذا لكم يسيرا .. أما إنى مزودكم، إن الله يباهى ملائكته بعباده يوم عرفة.

قال شريك : خطبنا الحسن بن على يوم الجمعة، فقرأ سورة إبراهيم على المنبر حتى ختمها.

قال ابن سيرين : كان الحسن بن على لا يدعو أحدا إلى الطعام .. يقول : هو أهون من أن يدعى إليه أحد .. (قد كان يرى الطعام أهون من أن يُحلف عليه، أى كان لا يحلف على من شبع من طعام أن يزيد).

عن الحرمازى : خطب الحسن بن على بالكوفة .. فقال : إن الحلم زينة والوقار مروءة .. والعجلة سفه، والسفه ضعف، ومجالسة أهل الدناءة شين ومخالطة الفساق ريبة.

قال عمرو بن الأضم : قلت للحسن : إن الشيعة تزعم أن عليا مبعوث قبل يوم القيامة .. قال : كذبوا والله .. ما هؤلاء بالشيعة، لو علمنا أنه مبعوث ما زوجنا نساءه ولا اقتسمنا ماله.

قال الكلبى : بويع الحسن، فوليها سبعة أشهر وأحد عشر يوما .. ثم سلم الأمر إلى معاوية.

عن محمد بن إبراهيم التيمى : أن عمر ألحق الحسن والحسين بفريضة أبيهما مع أهل بدر لقرابتهما لرسول الله - ﷺ - .

- من هم بنو الحسن ؟

هم الحسن، وزيد، وطلحة، والقاسم، وأبو بكر، وعبد الله، فقتلوا بكربلاء مع عمهم الشهيد -سيدنا الحسين- وعمرو وعبد الرحمن، والحسين، ومحمد، ويعقوب وإسماعيل وهؤلاء الذكور من أولاد السيد الحسن .. ولم يعقب منهم سوى الرجلين الأولين الحسن .. وزيد.

فللحسن خمسة أولاد أعقبوا .. ولزيد ابن وهو الحسن بن زيد، فلا عقب له إلا منه .. ولى إمرة المدينة وهو والد الست نفيسة، والقاسم ، وإسماعيل، وعبد الله وإبراهيم، وزيد، وإسحاق، وعلى -رضى الله عنهم-.

كان الصديق يجل الحسن ويعظمه ويكرمه ويحبه .. وكذلك عمر بن الخطاب .. فعندما عمل عمر الديوان فرض للحسن والحسين مع أهل بدر فى خمسة آلاف .. وكذلك كان عثمان يكرم الحسن والحسين ويحبهما.

كان على يكرم الحسن إكراما زائدا، ويعظمه ويبجله .. وقد قال له يوما : يا بنى، ألا تخطب حتى أسمعك ؟ فقال الحسن لعلى : إنى أستحى

أن أخطب وأنا أراك .. فذهب على فجلس حيث لا يراه الحسن .. ثم قام الحسن فى الناس خطيبا وعلى يسمع فأدى خطبة بليغة فصيحة فلما انصرف جعل علىّ يقول :

﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران].

كان ابن عباس يأخذ الركاب للحسن والحسين إذا ركبا .. ويرى هذا من النعم عليه .. وكان إذا طافا بالبيت يكاد الناس يحطمونهما مما يزدحمون عليهما للسلام عليهما – رضى الله عنهما وأرضاهما –.

كان ابن الزبير يقول : والله ما قامت النساء عن مثل الحسن ابن على.

كان الحسن إذا صلى الغداة فى مسجد رسول الله يجلس فى مصلاه يذكر الله حتى ترتفع الشمس، ويجلس إليه من يجلس من سادات الناس يتحدثون عنه .. ثم يقوم فيدخل على أمهات المؤمنين فيسلم عليهن وربما أتحفنه، ثم ينصرف إلى منزله.

روى عن سيدنا الحسن أنه كان يقرأ فى بعض خطبه سورة إبراهيم .. وكان يقرأ كل ليلة سورة الكهف قبل أن ينام.

كان الحسن من الكمال على جانب عظيم .. وربما جاد على الرجل الواحد بمائة ألف .. قال سعيد بن عبد العزيز : سمع الحسن رجلا إلى جانبه يدعو الله أن يملكه عشرة آلاف درهم فقام إلى منزله فبعث بها إليه.

ذكروا أن الحسن رأى غلاما أسود يأكل من رغيف لقمة ويطعم كلبا هناك لقمة .. فقال له : ما حملك على هذا ؟ فقال : إنى أستحى منه أن

آكل ولا أطعمه .. فقال له الحسن : لا تبرح من مكانك حتى آتيك. فذهب إلى سيده فاشتراه، واشترى الحائط (البستان) الذى هو فيه فأعتقه وملكه الحائط .. فقال الغلام : يا مولاى .. قد وهبت الحائط للذى وهبتنى له.

قال أبو جعفر الباقر : جاء رجل إلى الحسين بن على فاستعان به فى حاجة .. فوجده معتكفا فاعتذر إليه .. فذهب إلى الحسن فاستعان به فقضى حاجته .. وقال: لقضاء حاجة أخ لى فى الله أحب إلىّ من اعتكاف شهر.

قال ابن إسحاق : ما تكلم عندى أحد كان أحب إلىّ إذا تكلم إلا سكت من الحسن بن على وما سمعت منه كلمة فحش إلا مرة .. فإنه كان بينه وبين عمرو بن عثمان خصومة فقال : ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه .. فهذه أشد كلمة فحش سمعتها منه قط.

كان على خاتم الحسن بن على مكتوبا :

قدم لنفسك ما استطعت من التقى

إن المنيــة نــازل بـــك يا فــتى

أصبحــت ذا فرح كأنــك لا تـرى

أصاب قلبـك فـى المقابــر والبــلى

يقول على بن أبى طالب لابنه الحسن عن المروءة :

يا بنى .. سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا فقر أشد من الجهل .. ولا مال أفضل من العقل .. ولا وحدة أوحش من العجب .. ولا مظاهرة أوثق من المشاورة ولا عقل كالتدبر .. ولا حسب كحسن الخلق .. ولا ورع كالكف ولا عبادة كالتفكير .. ولا إيمان كالحياء».

يا بنى .. اعلم أن رأس الإيمان الصبر.. وآفة الحديث الكذب وآفة العلم النسيان .. وآفة الحلم السفه .. وآفة العبادة الانكسار والضعف .. وآفة الظرف (الكياسة) هو التمدح بما ليس عندك والتكلم بما يكره صاحبك.

ثم يقول على لابنه الحسن أيضا :

يا بنى .. اعلم أن آفة الشجاعة البغى وآفة السماحة المَن .. وآفة الجمال الخيلاء .. وآفة الحب الفخر .. ثم قال على :

يا بنى لا تستخف برجل تراه أبدا، فإن كان أكبر منك فعده أباك وأن كان مثلك فهو أخوك، وإن كان أصغر منك فاحسب أنه ابنك.

قال القاضى أبو الفرج : إن نصائح على للحسن فيها الخير من الحكمة وجزيل الفائدة ما ينتفع به من راعاه، وحفظه ووعاه وعمل به وأدب نفسه بالعمل عليه وهذبها بالرجوع إليه وتتوفر فائدته بالوقوف عنده .. ليت كل أب يقدم لابنه هذه النصائح ليعمل بها.

وماذا قال الحسن بن على لبنيه وبنى أخيه ؟

تعلموا فإنكم صغار قوم اليوم، وتكونون كبارهم غدا، فمن لم يحفظ منك فليكتب .

قال صالح بن أحمد : سمعت أبى يقول : بايع الحسن تسعون ألفا فزهد فى الخلافة وصالح معاوية ولم يُسل فى أيامه محجمه من دم.

قال وهب بن جرير .. قال أبى : لما قتل علىّ بايع أهل الكوفة الحسن بن على، وأطاعوه، وأحبوه أشد من حبهم لأبيه.

قال رجل للحسن : إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقال : كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله، ثم أثيرها ثانيا من أهل الحجاز؟

دخل رجل على الحسن بن على وهو بالمدينة وفى يده صحيفة فقال : ما هذه ؟ فقال : إن معاوية يعد فيها ويتوعد .. قال : كنت على النصف منه .. قال : أجل .. ولكن خشيت أن يجئ يوم القيامة سبعون ألفا أو ثمانون ألفا أو أكثر أو أقل تنضح أوداجهم دما، كلهم يستعدى الله فيم هريق دمه.

رأى الحسن بن على فى منامه، أنه مكتوب بين عينيه : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص : ١] ففرح بذلك فبلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : إن كان رأى هذه الرؤيا فقل ما بقى من أجله .. قال : فلم يلبث الحسن بن على بعد ذلك إلا أياما حتى مات.

قال الحسن : لقد سقيت السم مرارا وما سقيت مرة هى أشد من هذه .. سأله الحسين عن الذى وضع السم له لكى ينتقم منه ويقتله .. إلا أن الحسن قال للحسين : فالله أشد بأسا وأشد تنكيلا .. وإن لم يكنه ما أحب أن تقتبل بى بريئا.

لما احتضر الحسن بن على قال : اخرجونى إلى الصحن أنظر فى ملكوت السماوات .. فأخرجوا فراشه فرفع رأسه فنظر فقال : اللهم إنى أحتسب نفسى عندك فإنها أعز الأنفس علىّ.

لما اشتد بالحسن بن على الوجع جزع .. فدخل رجل فقال له : يا أبا محمد ما هذا الجزع ؟ ما هو إلا أن تفارق روحك جسدك فتقدم على أبويك

.. عليّ وفاطمة وعلى جديك النبى ﷺ وخديجة وعلى عميك : حمزة وجعفر، وعلى أخوالك القاسم والطيب ومطهر وإبراهيم، وعلى خالاتك رقية وأم كلثوم وزينب .. قال : فسرى عنه.

وفى رواية : إن القائل ذلك الحسين وأن الحسن قال له :

يا أخى إنى داخل فى أمر من أمر الله لم أدخل فى مثله وأرى خلقا من خلق الله لم أر مثلهم قط.

قال : فبكى الحسين -رضى الله عنهما-.

لما مات الحسن .. بعث الحسين يستأذن عائشة فى أن يدفن الحسن مع رسول الله فأذنت له .. فلما مات لبس الحسين السلاح وتسلح بنو أمية وقالوا : لا ندعه يدفن مع رسول الله ﷺ أيدفن عثمان بالبقيع ويدفن الحسن بن على فى الحجرة ؟!

فلما خاف الناس وقوع الفتنة أشار سعد بن أبى وقاص وأبو هريرة وجابر وابن عمر .. على الحسين أن لا يقاتل .. فامتثل ودفن أخاه قريبا من قبر أمه بالبقيع -رضى الله عنه-.

يوم موت الحسن ، وقف أبو هريرة قائما على مسجد رسول الله وهو ينادى بأعلا صوته :

أيها الناس مات اليوم حِب رسول الله فابكوا .. وقد اجتمع الناس لجنازته حتى ما كان البقيع يسع أحدا من الزحام .. وقد بكاه الرجال والنساءسبعا.

قيل له : إن أبا ذر يقول : الفقر أحب إلىّ من الغنى .. والسقم من الصحة .. فقال :

رحم الله أبا ذر.. أما أنا فأقول : من اتكل على حُسن اختيار الله لم يتمن غير الحال الذى اختاره الله له .. وهذا حد الوقوف على الرضا بما تصرف به القضا.

رأى الحسن عيسى ابن مريم – عليه السلام – فى المنام فقال :

– أريد أن اتخذ خاتما فما أكتب عليه ؟

قال : اكتب عليه : لا إله إلا الله الملك الحق المبين فإنه آخر الإنجيل.

جذور الخلاف

بين بنى هاشم وبنى أمية

لم يكن أحد يدرى فى مكة وهى تشاهد النبى ﷺ يمشى بينهم قبل الرسالة، أنه سيحدث تغيرات هائلة ليس على مستوى مكة وحدها، ولا على مستوى الحجاز وحده، ولكن على مستوى العالم كله.

كانوا ينادونه بالأمين، وكانوا يعرفون أنه نشأ بينهم يتيما.. مات والده وهو فى بطن أمه، وعاشت أمه حتى بلغ السادسة من العمر، وكفله جده أبو طالب حتى بلغ الثامنة من عمره، وبعدها كفله عمه أبو طالب، وكان كثير العيال .. ومع ذلك فقد أحبه من كل قلبه .. أحبه للظروف التى مرت به، وأحبه لأنه ابن أحب أبنائه إلى قلبه (عبدالله) الذى مات فى ريعان الشباب فى أرض غريبة، ودفن عند أخوال أبيه من بنى النجار فى (يثرب).

وأحبه أكثر مما وجد فيه من جمال الخلق وحدة الذكاء، وعزوفه عن الأهواء، فلم يثر انتباهه ما كان يثير من كانوا فى عمره سواء عندما كان طفلا أو صبيا أو شابا فى مقتبل العمر.

وأحبته مكة كلها لأخلاقياته الرفيعة، وبعده عن كل ما يعاب.

صحيح أنه نشأ فى بنى هاشم .. وبنى هاشم لهم الزعامة على قريش.

وصحيح أيضا أنه كان هناك صراع بين الهاشميين والأمويين، لأن الأمويين بما لهم من نفوذ فى مكة كانوا يريدون أن تكون لهم السيادة على مكة، وهذا الصراع يمتد جذوره إلى الجدود عندما احتدم التنافس بين

هاشم جد الهاشميين، وبين أمية جد الأمويين، حتى أن أمية آثر الخروج إلى الشام وفى نفسه ما فيها من نقمة على الهاشميين.

لم يكن أحد يدرى أن محمداً الأمين الذى يسير بينهم ويعمل ليأكل من كد يده، سوف يغير موازين الحياة لا فى مكة وحدها ولكن فى العالم كله.. كان راجح العقل .. لم يسجد لصنم قط.. ولا استهواه عبث الشباب ولكنه كان كثير التأمل .. كثير التفكير .. يريد أن يعرف ويعرف .. ليس أنساب العرب ومفاخرهم .. ولا تراث الآباء والأجداد.. ولكن كان يريد أن يعرف سر الحياة .. ما وراء هذا الكون البديع الفسيح ..

حتى فى رحلاته التى قام بها مع عمه أبى طالب إلى الشام وهو مازال فى الثانية عشر من عمره.. كان طوال الرحلة دائم التفكير فى جمال وجلال هذا الكون بجباله وسهوله .. ووديانه وسمائه المزدهرة بالنجوم .. وتاجر فى مال السيدة خديجة .. وربحت تجارته وتزوجها.. وأخذت حياته مساراً آخر .. كان يذهب إلى غار حراء فى رمضان ليتأمل فى الأيام ذوات العدد «الأحد، الاثنين ، الثلاثاء، الأربعاء ، الخميس».

وجاءته الرسالة.

وحاربته مكة حربا لا هوادة فيها.

البعض حاربه لأنه جاء بشىء غير مألوف لديهم، ولتقديسهم ما كان يعبد الآباء والأجداد .. فقد جاءوا إلي الحياة ورأوا آباءهم يقدسون عبادة الأوثان، ويقدسون البيت الحرام الذى بناه إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، فما بال محمد بن عبد الله يدعوهم إلى نبذ عبادة الأصنام، وإن كان يعظم بيت الله الحرام.

لم يستمعوا إليه وهو يخبرهم بضرورة تطهير بيت الله الحرام من الأوثان، ولم يكن خليل الرحمن يعبدأصناما ولكنه حطم الأصنام، ودعا إلى عبادة الله الواحد برءا من كل شرك .. وعندما تزوج من هاجر المصرية وجاء بها إلى هذا المكان .. أقام قواعد هذا البيت بعد أن اشتد عود ابنه إسماعيل ليكون مثابة للناس وأمنا، ولكن الناس نسوا رحيق الرسالة التى جاء بها إبراهيم الخليل وتمسكوا بعبادة الأصنام التى امتلأ بها بيت الله الحرام .. وجاء محمد ﷺ ليخبرهم بسفاهة ما يعتقدون فكان عليهم أن يثوروا على من جاء يُسفه عقول الآباء والأجداد، وكان على بنى أمية أن يحاربوا الدعوة الجديدة خوفا من أن ترفع الرسالة التى جاء بها واحد من بنى هاشم من قدر بنى هاشم .. وتكون لهم السيادة على قريش والعرب.

وحاربها أيضا بعض القبائل التى وجدت فيها بجانب هدمها للمعتقدات التى ألفوها سيادة بنى هاشم عليهم، ووأداً لتطلعاتهم،

وسرعان ما انتصر الإسلام، وساد الجزيرة العربية كلها، ولم يكن فى استطاعة أبو سفيان بن حرب ولا غيره أن يوقف زحفه الكاسح .. فأسلم أبو سفيان عندما تم فتح مكة .. ربما ليكون له دور فى الحياة الجديدة .. ولكن ظل فى قلبه الكثير على النبى وبنى هاشم .. وظل النبى يتألفه حتى يصفى ما فى نفسه من أحقاد، حتى أنه فى ذات يوم نظر إلى النبى طويلا وهو يدخل المسجد، وكان يقول فى نفسه كيف انتصر عليه وغلبه ؟!

ولاحظ الرسول ﷺ .. فأقبل عليه حتى ضرب بيده بين كتفيه .. وهو يقرأ مادار فى رأسه من أفكار وقال له :

– بالله غلبتك يا أبا سفيان !

ومع أن النبى ﷺ تزوج ابنته (أم حبيبة) وهو بالحبشة . عندما ارتد زوجها عن الإسلام، تكريما لجهادها فى الغربة، وأنه بنى بها عندما عادت من الحبشة إلى المدينة، إلا أن أبا سفيان ظل يضمر فى نفسه الغيرة من بنى هاشم، وما رفعهم به الإسلام إلى قمة سامقة لا يمكن أن يتطاول إليها رجل فى مكة كلها !

وانتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى بعد أن اجتاح الإسلام شبه الجزيرة العربية كلها، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، وبعد أن جابه المسلمون الرومان أقوى قوى العالم فى هذا العصر فى تبوك بقيادة الرسول ﷺ بنفسه ولم يقو الرومان على مجابهته وآثروا السلامة والصلح معه .. وبعد ذلك فى (مؤته).

شاهد أبو سفيان ذلك، وقد بهرته الصورة، وهزته الانتصارات التى حققها الإسلام، وإن كان يراها قد حققها بنو هاشم !!

وجاءت فرصته بعد رحيل الرسول ﷺ إلى أكرم جوار، أو هكذا خيل إليه أن يجد فرصة يبرز فيها بين الصفوف ويبحث لنفسه عن دور !

فقد بويع أبو بكر الصديق بالخلافة بعد أحداث السقيفة .. وجاء أبو سفيان بن حرب إلى على بن أبى طالب وعمه العباس، يريد أن يحدث انشقاقا فى الصفوف، فقد كان يرى أن هذا الأمر (الخلافة) آل إلى أهل بيت فى قريش!

قال لهما :

يا علىّ .. وأنت يا عباس .. ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها .. والله لو شئت لأملأنها عليه خيلا ورجالا وأخذتها عليه من أقطارها.

وفطن علىّ والعباس إلى قصد أبو سفيان بن حرب .. وأنه لا يريد إلا الفتنة، فليس من المعقول وتاريخ التنافس بين الهاشميين والأمويين معروف أنه يريد أن تؤل الخلافة إلى بنى هاشم .. ولكنها المكيدة والصيد فى الماء العكر .. فرد عليه على بن أبى طالب:

لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجالا ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه وإياها.

وكأن عليا -رضى الله عنه- يريد أن يلقنه درسا، بأن الإسلام له مبادئه وقيمه وأخلاقياته التى يجب ألا تغيب عنه، وأنه لا مكان للنفاق والغش بين من يؤمنون بالدين الحنيف فقال له :

- يا أبا سفيان .. إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض، وأن المنافقين قوم غشش بعضهم لبعض متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم.

ولم ينس العباس لأبى سفيان موقفه، عندما خرجا سويا، ونظرا على بعد فإذا بجيوش المسلمين تملأ الساحة تأهبا لفتح مكة، وأيقن يومها أبو سفيان، أنه من المستحيل على قريش مجابهة جيش المسلمين، وأن الهزيمة ستحيق بمكة لو فكرت فى التصدى لجيش الرسول .. أيقن يومها انتصار محمد - عليه الصلاة والسلام - وصحبه، ساعتها توجه أبو سفيان بالكلام إلى العباس قائلا :

لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما .. كان يرى فى ذلك ملكاً، وليس دينا جاء ليبشر بالقيم النبيلة، والشريفة، نورا يضئ للناس حياتهم فى دنياهم وما بعد دنياهم.

يومها لقنه العباس درسا عندما قال له : إنها النبوة ..!

ورد أبو سفيان مداهنا : نعم إذن.

وتألفه الرسول بأن أعلن أن من يدخل البيت الحرام من أهل مكة فهو آمن، ومن لزم بيته فهو آمن، ومن دخل بيت أبى سفيان فهو آمن.!

ولم يجد الرجل مفرا من الإسلام.

ولم تجد زوجته هند بنت عتبة التى حرضت على قتل الحمزة ابن عبد المطلب عم الرسول ﷺ يوم أحد، حتى قتل، وبقرت بطنه وأكلت كبده تشفيا فيه لقتله أباها وأخاها وعمها فى معركة بدر.. لم تجد أمامها هى الأخرى وقد دخلت مكة فى الإسلام إلا أن تعلن إسلامها .. على مضض .. كما دخل ابنها معاوية الإسلام.

ومضت الأيام وانتشر نور الإسلام فى كل أنحاء الجزيرة، وتطلع الرسول إلى أن ينتشر نور الإسلام فى العالم كله، لأنه جاء رسولا للدنيا كلها.. ومن هنا كانت رسائله لملوك العالم وأمرائه للدخول فى الإسلام .. ومن هنا كانت المواجهة فى عهد الرسول بينه وبين الروم فى تبوك بقيادة الرسول نفسه، ثم بعد ذلك فى مؤته.

وكانت هذه هى أول المواجهات مع أوربا ممثلة فى دولة الروم وانتقل الرسول الكريم إلى أكرم جوار.

وخلفه أبو بكر الصديق الذى استطاع بقوة إيمانه أن يقضى على المرتدين ومانعى الزكاة، وأن يوحد المسلمين تحت راية واحدة، وأن يبدأ بمواجهة القوى العظمى فى عصره (الفرس والرومان).

كان الجهاد فى سبيل الله ذروة الأمانى للمسلمين فانطلقت الجيوش الإسلامية لتواجه أعظم قوى عصرهم بإيمان عميق بالهدف الذى يسعون إليه .. وهو نشر نور الإسلام فى كل مكان .. والقضاء على المظالم .. وهذا ما بدا واضحا فى عهد الفاروق عمر بن الخطاب الذى استطاع أن يحقق انتصارات مذهلة.

فبقضائه على الإمبراطورية الفارسية، وانتصاره على الروم وضم الشام ومصر إلى الراية الإسلامية .. أصبحت هناك تطلعات إلى أن يغزو الإسلام كل مكان للشرك والضلال ..

فى مثل هذه الظروف .. وفى وهج الانتصارات الإسلامية اختفت العداوات القبلية وخبت نارها .. وإن كان مازال لها وبيص تحت التراب.

اكتفى الأمويون أن يكون لهم دور فى الدولة الإسلامية وخاصة عندما أتيحت لمعاوية أن يصبح واليا على الشام فى زمن عمر بن الخطاب .. حيث بدأ يقوى نفوذه هناك .. وبدأ نفوذ بنى أمية فى التألق .. فإن كانوا فى الجاهلية كان لهم دور فى قياة الجيوش، وبنى هاشم لهم شرف رفادة الحجاج وسقايتهم، فإنهم اليوم عادوا فقفزوا قريبا من السلطة وإن كان أملهم فى الخلافة نفسها صعب المنال .. لأن هناك كبار الصحابة الذين كان لهم دورا ملموسا فى الدعوة، وهناك علىّ بن أبى طالب صاحب المواقف المشهودة فى الدفاع عن الإسلام بجانب مركزه المرموق وعلمه

الغزير واستشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب له فى كثير من الأمور .. بكل ذلك جعل الأمويين يرون أنهم ليسوا فى الطليعة.

ولكن الفرصة اتحيت لهم عندما تولى الخلافة عثمان بن عفان وهو واحد منهم، بعد استشهاد عمر -رضى الله عنه- .. فقد أغدق على بنى أمية وقربهم منه .. ووطد نفوذ معاوية فى الشام.

وكان عثمان -رضى الله عنه- محبوبا فى أول عهده بالحكم، فقد كان لين الجانب .. شديد الحياء .. شديد السخاء .. وهو على حد تعبير جلال الدين السيوطى فى تاريخ الخلفاء.

«هو أول من أقطع القطائع، وأول من حمى الحمى، وأول من خفض صوته بالتكبير، وأول من أمر بالآذان الأول فى الجمعة، وأول من رزق المؤذنين، وأول من ارتج فى الخطبة، وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة، وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم، وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه، وأول من اتخذ صاحب شرطة، وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد خوفا من أن يصيبه ما أصاب عمر، وأول ما وقع فى عهده الاختلاف بين الأمة فخطأ بعضهم بعضا فى زمانه فى أشياء نقموها عليه، وأول من هاجر إلى الله بأهله، وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة، وأول منكر ظهر بالمدينة فى عهده حين فاضت الدنيا».

بهذا الإيجاز لخص الإمام السيوطى حياة الخليفة الثالث، الذى ظهرت الفتنة فى عهده، والتى انتهت بحياته .. فقد قتل على حد تعبير الإمام السيوطى مظلوما .. ومن قتله كان ظالما، ومن خذله كان معذوراً».

وعندما آل الحكم إلى علىّ بن أبى طالب، رفض معاوية مبايعته بحجة تقاعسه عن دم عثمان، وتشبث بحكم الشام ورفض الخلع، وكان ما كان من صراع بين وبين معاوية، والذى انتهى بإحكام قبضة معاوية على الحكم بعد استشهاد علىّ كرم الله وجهه على يد أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم.

ويروى الرواة قصة الدافع وراء هذه الجريمة البشعة التى أنهت حياة الإمام علىّ -رضى الله عنه- .. والقصة تقول أن عبد الرحمن ابن ملجم كان قد أحب امرأة من الخوارج اسمها (قطام) .. وأن أباها وأخاها قتلا على يد الإمام علىّ فى معركة (النهروان) .. وعندما عرفت مدى حب ابن ملجم لها اشترطت عليه أن يكون مهرها ثلاثة آلاف درهم، وقتل الإمام علىّ .. وقد فعل الرجل فعلته بهذا الدافع، وقد عبر الشاعر الفرزدق عن هذه الحادثة بقوله :

فلم أر مهرا ساقه ذو سماح كمهر قطام من فصيح وأعجم

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علىّ بالحسام المصمم

فلا مهر أغلا من على وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وقد أخذت الأحداث بعد ذلك شكلا مثيرا ومخيفا.

كان من الطبيعى أن يخلف الإمام علياً فى الخلافة الحسنُ ابنُ علىٍّ.

وقد بايعه بالفعل أهل الكوفة.

وكان الحسن مسالما .. يكره الحروب، ويؤثر السلام، وأراد أن يضع حدا لأنهار الدماء التى جرت على الساحة الإسلامية منذ الفتنة الكبرى فى

عهد عثمان، إلى المعارك الطويلة بين علىّ ومعاوية .. فآثر السلام وحقن الدماء، وكان الحسن فى السابعة والثلاثين من عمره .. وقد بعث برسالة إلى معاوية يعرض عليه السلام، وأن يكون له الأمر من بعده كما يقول الإمام السيوطى، أو أن يصبح الأمر شورى يختار المسلمون من يشاءون للخلافة فى أقوال أخرى، كما طالبه بأن يقضى ديونه ولا يطالب أهل الحجاز فى أقوال أخرى، وقد استجاب معاوية لهذه المطالب.

وبذلك تحقق ما قاله النبى ﷺ عن الحسين يصلح الله به بين فئتين من المسلمين».

وكان تنازله عن الخلافة فى سنة احدى وأربعين، واختلفوا فى شهر التنازل فقيل : كان ذلك فى شهر ربيع الأول، والبعض قال ربيع الآخر، والبعض الثالث قال كان فى جمادى الأولى.

مهما يكن من شئ فقد تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية وهكذا آل الحكم إليهم.

وتقول الروايات .. ومنها رواية للإمام السيوطى : أن يزيد بن معاوية وعد زوجته (جعده بنت الأشعث) أن يتزوجها بعد أن تضع السم للحسن فى طعامه، وأنها قد نفذت هذه المؤامرة ، وأنه بعد وفاة الحسن بعثت إلى يزيد ليفى بوعده فقال لها :

- إنا لم نرضك للحسن، أفنرضاك لأنفسنا ؟

وكان الدافع وراء ذلك هو أن الحسن كان اشترط أن يتنازل عن الخلافة بشرط أن تئول إليه بعد وفاة معاوية، فأراد يزيد أن يتخلص منه ببث السم فى طعامه عن طريق الجعدة بنت الأشعث .!

الخلاصة أنه بتنازل الحسن لمعاوية عن الحكم قد مكن لبنى أمية أن يكونوا هم أصحاب النفوذ الأول فى الامبراطورية الإسلامية التى تكونت فى عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة لأنه لم يحدث توسع إسلامى فى خلافة الإمام علىَ الذى انشغل فى الصراع مع معاوية، وأنه قد أصبح معاوية صاحب النفوذ، وكان معاوية قويا .. لين الجانب، سياسى داهية .. حتى قيل عنه :

تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتدعون معاوية ؟

وقال عنه أحدهم :

صحبت معاوية، فما رأيت رجلا أثقل حلما ولا أبطأ جهلا ولا أبعد أناة منه. وقد عين معاوية حاكما للمدينة مروان بن الحكم.

كما اختار المغيرة بن شعبة لإمارة الكوفة، وكان المغيرة هذا شديد الدهاء.

واختار زياد بن أبيه -الذى ألحقه بنسبه- وأصبح زياد بن أبى سفيان أميرا للبصرة. والذى امتد نفوذه إلى جنوب فارس حتى نهر السند. وظل حاكما عليها حتى تولى بجانب ذلك حكم الكوفة بعد وفاة المغيرة. ورغم أن زياد ابن أبيه كان يعمل لحساب علىّ بن أبى طالب، إلا أنه انتقل إلى أشد المعادين له، بعد الحاق نسبه بأبى سفيان.

وقد استطاع بشدته التى لا تعرف الرحمة أن يسوس الناس.

ولعل الأستاذ بيرنارد لويس فى حديثه عن العرب فى التاريخ قد رسم صورة قريبة من الواقع لعهد معاوية بقوله :

كان الموقف يعرض صعوبات عدة ، عند ارتقاء معاوية سدة الخلافة.

فلقد أدى مصرع عثمان إلى تحطيم تلك الأصول الدينية التى ربطت الخلفاء الأول إلى الناس، وبات لزاما على معاوية أن يجد قاعدة جديدة تقوم عليها الامبراطورية. وكان الحل الذى وجده هو التحول من الدولة الدينية الإسلامية إلى الدولة العلمانية العربية. ولم يكن معاوية دائب القيادة لقومه، ولكنه كان بارعاً فى إدارتهم عن طريق الإقناع والكفاية الشخصية.

ولكن كيف أخذ معاوية البيعة ليزيد؟

أن أصلح الروايات التى قيلت فى ذلك ملخصها أن المغيرة بن شعبة قد أحس أن معاوية يريد أن يعزله من إمارة الكوفة، فأراد أن يتملقه، واقترح عليه أن يأخذ البيعة لابنه يزيد.

قال ليزيد بن معاوية :

لقد ذهب أعيان صحابة رسول الله ﷺ وكبراء قريش وأشرافهم، وإنما بقى أبناؤهم وأفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة، ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟!

قال يزيد :

– أترى ذلك يتم ؟

قال : نعم.

وأخبر يزيد والده بما اقترحه المغيرة، وعندما أحضره معاوية سأله عن اقتراحه بتولية يزيد الخلافة بيعة، فقال المغيرة له :

قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف، فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة.

قال معاوية : ومن لى بذلك ؟

قال : أكفيك أهل الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعدهذين المصريين أحد يخالفك.

أعجبت الفكرة معاوية، وقال للمغيرة ؟

ارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به فى ذلك وترى ونرى.

وعندما عرض الأمر على زياد نصحه بأن يتريث قليلاً، وأخذ معاوية بنصيحته، إلا أن الفكرة ألحت اليه بعد وفاة زياد وأرسل إلى عامله فى المدينة مروان بن الحكم برغبته فى ذلك، إلا أنه قامت معارضة لهذه الفكرة من أبناء الصحابة وعلى رأسهم الحسين بن علىّ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر وغيرهم .. وكانت وجهة نظرهم أن الخلافة بذلك تتحول إلى هرقلية.

ولم يكن من الصعب على معاوية أن يأخذ بيعة أهل الشام والعراق لابنه يزيد، وتوجه بعدها إلى الحجاز مع عدد كبير من جيش الشام ليأخذ البيعة لابنه، وكان أعلام أبناء الصحابة قد توجهوا إلى مكة.

ويلخص الأستاذ خيرى حماد ما جرى بعد ذلك بقوله :

وكان المعارضون قد تركوا المدينة إلى مكة فخرج معاوية وقضى بها نسكه، ثم جمعهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذى يخاطبه ابن الزبير فقال لهم معاوية :

قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم وحملى ما كمان منكمو ويزيد أخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتحبون المال، وتقسمونه لا يعارضكم فى شئ من ذلك ؟

فقال ابن الزبير :

نخيرك بين ثلاث خصال .

قال : اعرضها.

قال : تصنع كما صنع رسول الله ﷺ قبض ولم يستخلف أحدا فارتضى الناس أبا بكر.

قال معاوية :

ليس فيكم مثل أبى بكر.

قال عبد الله :

وأنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه، وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى أبيه.

قال معاوية :

هل عندكم غير هذا ؟

فقالوا : لا.

قال : فإنى أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر، إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس فأحمل ذلك

فأصفح، فإنى قائم بمقاله فاقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمة حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه.

ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل واحد سيف، فإن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفيهما.

ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبت بأمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا ليزيد على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب راحلته وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام.

ويروى أن ابن عمر قال لمعاوية :

أبايعك على أن أدخل فيما تجتمع عليه الأمة فوالله لو اجتمعت على جيش لدخلت معها.

وبهذا المكر .. وهذا الدهاء .. وباللين والقوة .. استطاع معاوية أن ينتزع الخلافة انتزاعاً لابنه يزيد، وليحول الخلافة إلى ملك عضوض.

وانتقل معاوية إلى رحاب الله فى عام ٦٨٠م، بعد أن أخذ البيعة إلى يزيد .. ولكن الأمور لم تكن تسير على هوى بنى أمية، فقد تصدى الحسين له .. وسارت الأحداث فى طريق آخر .. طريق ملئ بالدموع والضحايا .. والشهداء.

منزلة الإمام الحسين

لاشك أن الإمام الحسين له مكانة كبيرة فى قلوب الناس وعقولهم، فهو حفيد الرسولﷺ ، وابن فاطمةر الزهراء بنت رسول الله، وأبوه علىّ بن أبى طالب صاحب المواقف المشهودة مع رسول الله، والذى قال عنه الرسول :

«أنت منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى».

وكان الحسين قريبا إلى قلب رسول الله، وعندما ولد سماه أبو (حربا) وغير النبى اسمه إلى الحسين.

وهناك أحاديث كثيرة تشيد بالحسين، ومدى حب الرسول له، فقد عاش الحسين خمس سنوات فى ظل النبوة .. وكثيرا ما كان يحمله الرسول على ظهره، وكثيرا ما كان هو وأخوه الأكبر الحسن يقفزان على ظهر الرسول الكريم أثناء سجوده، فيطيل السجود حتى ينزلا من على ظهره.

وقد ولد الحسين فى شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة على أرجح الأقوال، وسعد به الرسول.

ويقول الرواة أن السيدة أم الفضل بنت الحارث رأت فى منامها أن فى بيتها طرفا من رسول الله، فذهبت إلى رسول الله ليفسر لها هذه الرؤيا .. فقال لها .. هو ذاك .. فولدت فاطمة حسينا فأرضعته أم الفضل حتى فطم.

وقد أمر الرسول بحلق رأس الحسين، وتصدق بزنته فضة وكان من

حبه له يكثر من مداعبته .. وكثيرا ما كان يضع يده الشريفة فى فمه ليمتصها .. وكثيرا ما كان يغذيه بلسانه .. وكان يخشى عليه هو وأخوه الحسن من الحسد، فكان يعوذهما قائلا :

«أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة».

وقال عنه ﷺ أيضا : «حسين منى وأنا من حسين».

وقد تربى الحسين فى ظل بيت النبوة .. وتعلم كيف يكون عليه دينه، وكيف يعامل الآخرين على ضوء تعاليم الإسلام، فشرب العلم من جده ومن أمه فاطمة الزهراء، ومن والده الذى روى أن الرسول ﷺ قال عنه :

«أنا مدينة العلم وعلىّ بابها».

وقد نصحه والده الإمام علىّ -رضى الله عنه- بقوله فى خطبة طويلة يحثه فيها على ما ينبغى أن يكون عليه كشخص يراقب الله فى سره وعلانيته، ويراقب الناس فى خلقه، ويبصره بالتجارب التى استفاد منها فى حياته .. ومن هذه النصائح الغالية التى استوعبها الإمام الحسين بلا شك قول الإمام على لولده :

«يابنى أوصيك بتقوى الله عز وجل فى الغيب والشهادة، وكلمة الحق فى الرضا والغضب، والقصد فى الغنى والفقر، والعدل فى الصديق والعدو، والعمل فى النشاط والكسل، والرضا عن الله تعالى فى الشدة والرخاء.

يا بنى .. ما شر بعد الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية.

واعلم يا بنى أن من أبصر عيب نفسه شغل عن غيره، ومن تعرى من لباس التقوى لم يستتر بشئ من اللباس أبدا، ومن رضى بقسم الله تعالى لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغى قتل به، ومن حفر بئراً لأخيه وقع فيها، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم الغمرات غرق، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله ذل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن سفه عليهم شتم، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن خالط الأنذال حقر، ومن جالس العلماء وقر، ومن فرح استخف به، ومن أكثر من شئ عرف به، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار».

إلى آخر هذه النصيحة الغالية التى ركز فيها الإمام علىّ على الفضائل الإنسانية، ونهى فيها عن الرذائل التى تفقد الإنسان وزنه فى دنيا الناس، والذى اختتمها بقوله :

«واعلم يا بنى .. من لانت كلمته وجبت محبته، ومن لم يكن له حياء ولا سخاء فالموت أولى به من الحياة .. لاتتم مروءة الرجل حتى لا يبالى أى ثوبين لبس، ولا أى طعاميه أكل.

وفقك الله لرشده، وجعلك من أهل طاعته بقدرته إنه جواد كريم».

كل هذه القيم والشمائل التى تربى عليها الإمام الحسين، جعلت منه إنسانا متكاملاً فى أخلاقه .. صاحب شخصية قوية آسرة، محبوبا من الناس .

كان الإمام الحسين .. تقيا .. بليغاً، نقيا .. صاحب مروءة .. محبا للخير .. عزوفا عن الشر، فقيها فى أمور دينه، جوادا كجده العظيم، بجانب وسامته الفائقة، فقد كان شبيها بجده - عليه الصلاة والسلام -.

وقد وصف الحسين بأن جسده كان شبيها بجسد رسول الله ، بنما كان وجه الحسن يشبه وجه الرسول ﷺ .

وما أكثر ما قاله الرواه عن شخصية الحسين المحبوبة من الناس وما أكثر ما ساقوه عن تواضعه وهيبته وقوة منطقه وما أكثر الروايات التى ساقها الرواه عن مدى احترام الصحابة وأبناء الصحابة لشخصية الحسين.

الرواة يرون مثلا عن فصاحته وبلاغته فيسوقون مثلا عن حديثه لأبى ذر -رضى الله عنه- الذى هاجم الترف الذى يعيش فيه معاوية وبنى أمية، فنفاه معاوية عندما كان والياً على الشام، ونفاه الخليفة عثمان بن عفان من المدينة، فقال الحسين للصحابى الجليل المغلوب على أمره :

يا عماه .. إن الله قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم فى شأن .. وقد منحك القوم دنياهم ومنعتهم دينك، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم، فأسأل الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجذع، فإن الصبر من الدين والكرم. وأن الجشع لا يقدم رزقا والجزع لا يؤخر أجلا».

هده الكلمات اللغوية الرائعة التى تنبئ عن عقلية متفتحة واعية .. قالها الإمام الحسين وكان عمره ثلاثين عاما !

ويروى الرواة عن جوده وكرمه الكثير ومن ذلك أن أسامة بن زيد أقعده المرض، وذهب الإمام الحسين لزيارته فوجده شديد الحزن، لا لخوفه

من الموت، ولكن لأن عليه دينا يخشى أن يموت دون أن يقدر على سداده، وكان الدين ثقيلا على أسامة، فسدده الإمام الحسين حتى يلقى وجه ربه قرير العين والفؤاد.

وقد ساق الرواة حادثة طريفة تبين علمه وجوده وحبه للمعرفة والتبسط مع الناس، ومعاملة كل على قدر عقله.

جاءه أعرابى فى حاجة، فلما سأله عنها كتب الأعرابى حاجته على الأرض.

هنا داعبه الإمام الحسين، وقال له : سمعت أبى يقول المعروف بقدر المعرفة فأسألك عن ثلاث مسائل إن أجبت على واحدة فلك ثلث ماعندى، وأن أجبت على اثنتين فلك ثلثا ما عندى، وأن أجبت على الثلاثة فلك كل ما عندى، وقد حُملت إلىّ (صرة) من العراق، فقال الأعرابى : سل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فقال الإمام الحسين :

أى الأعمال أفضل ؟

الإيمان بالله.

ما نجاة العبد من الهلكة ؟

الثقة بالله.

مايزين المرء؟

علم معه حلم.

فإن أخطأه ذلك ؟

مال معه كرم.

فإن أخطأه ذلك ؟

فقر مع صبر.

فإن أخطأه ذلك ؟

صاعقة تنزل من السماء فتحرقه.

فضحك الإمام الحسين وأعطاه الصرة.!

وإذا كان الحق ما شهد به الأعداء، فقد كان معاوية يعرف للحسين قدره، حتى قال أنه لا يجد فيه ما يعيبه، حتى أن رجلا سأل معاوية أين يجد الحسين؟

فقال معاوية :

إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير، فتلك حلقة أبى عبد الله الحسين.

ويروى الرواة عن سخائه، وكرمه وجوده، وحسن معاملته للناس، كما يتحدثون عن كثرة صيامه وصلاته، وأنه حج خمسا وعشرين مرة ماشيا على قدميه وكان دعاؤه فى الحج وهو يمسك الركن الأسود :

إلهى : أنعمتنى فلم تجدنى شاكرا، وابتليتنى فلم تجدنى صابرا، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر، ولا أدمت الشدة بترك الصبر.

إلهى : ما يكون من الكريم إلا الكرم.

وإذا كان الدعاء هو العبادة، فقد كان الإمام الحسين شديد التضرع إلى الله كثير الدعاء.. لأن الدعاء يقرب بين الإنسان وربه .. لا يجعل بين الله وعباده حجاباً .. إنا لإنسان يشعر وهو يرفع يديه إلى السماء، ويناجى خالقه أن الله برحمته وجلاله ورأفته معه .. فتستكين النفس، وتطمئن الروح .. ويتوافق الإنسان فيما بينه وبين نفسه، فتعود إلى النفس صفاءها، طمأنينتها.. لا يهمها ما تواجهه من صعوبات الحياة .. وكان من أدعيته التى رواها عنه الرواة دعاؤه عندما يكون فى عرفة .. كان كثير الدعاء يدعو بقلب خاشع .. ومما كان يدعو به :

«اللهم اجعل غنائى فى نفسى، واليقين فى قلبى، والإخلاص فى علمى، والنور فى بصرى، والبصيرة فى دينى، ومتعنى بجوارحى، واجعل سمعى وبصرى الوارثين منى، وانصرنى على من ظلمنى، وأرنى فيه ثأرى ومأربى وأقر بذلك عينى.

اللهم اكشف كربتى واستر عورتى، واغفر لى خطيئتى، وأخسأ شيطانى، وفك رهانى، واجعل لى الدرجة العليا فى الآخرة والأولى.

اللهم لك الحمد كما خلقتنى فجعلتنى سميعا بصيراً ولك الحمد كما خلقتنى فجعلتنى سويا، رحمة بى وقد كنت عن خلقى غنياً.

وكان من دعائه أيضا : اللهم أوسع على من رزقك الحلال، وعافنى فى بدنى ودينى وآمن خوفى واعتق رقبتى من النار،».

وما أكثر الأدعية رالتى وردت عنه وتدل على نفس بالغة الصفاء .. بالغة الشفافية .. تريد ما عند الله لا ما عند الناس.

ومن أجل كل هذه الصفات والشمائل التى كان يتمتع بها الإمام الحسين، كان قريبا إلى قلوب الناس .. وكان يذكرهم بنبيهم العظيم، كلما استمع إلى عظة من عظاته، أو خطبة من خطبه، أو مجلس علم يجلس فيه فى مسجد جده العظيم يلقى دروسه، فإذا الناس تستمع إليه وكأن على رءوسهم الطير .. فهم منتبهون إلى كل كلمة يقولها .. أليس هو سليل بيت النبوة الطاهرة؟! وغصن الدوحة المباركة.

مر يوما على جماعة فى مسجد جده – عليه الصلاة والسلام – وكان فيهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وعندما اشرأبت الأعناق نحو الإمام الحسين، قال عبد الله بن عمرو لهم :

ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء ؟

قالوا بلى .

قال : هذا الماشى .. وأشار إلى الإمام الحسين !

شخصية لها كل هذا الجلال وهذا العلم الذى ورث بعضه عن جده العظيم نبى الإسلام محمد بن عبد الله -عليه الصلاة والسلام-، وورث بعضه عن أمه فاطمة الزهراء، فقد رويت على لسانه بعض الأحاديث التى سمعها من رسول الله ﷺ، والتى سمعها من أمه ومن أبيه .

ومن هذا مثلا أنه روى عن أبيه وصفه للنبى ﷺ فى جلساته فقال :

كان رسول الله دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب ولا فحاش، ولا عياب ولا مشاح، يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيس منه، ولا يخيب فيه، فقد ترك نفسه من ثلاث : المراء .. والإكبار،

وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير فإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا إليه حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب لما يتعجبون، ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته، حتى أن كان أصحابه ليستجلبوهم ويقول : إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فارفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجور فيقطعه بنهى أو قيام».

وهناك أحاديث كثيرة مسندة إليه قد رواها عن أبيه أو عن أمه مما سمعاه من خاتم النبيين.

رجل فى مثل الحسين .. فى جمال خلقته، وجمال خلقه، وجمال تكوينه، وشخصيته التى تأثرت بالبيئة النبوية كان جديرا بأن يكون محبوبا عند الناس لأنهم يعرفون قدره، ومحبوبا عند صحابة رسول الله لأنهم يعرفون كم كان النبى حفيا به ومحبا له.

وكان الإمام عالما جليلا.. متفقها فى أمور دينه وأصقلته تجارب الأيام.

سمع رجلا يقول فى حضرته :

إن المعروف إذا أسدى إلى غير أهله ضاع !

فقال له الإمام الحسين : ليس كذلك ولكن تكون الصنيعة مثل وابل المطر تصيب البر والفاجر !

ومن أقواله المأثورة :

– إياك وما تعتذر منه، فإن المؤمن لا يسئ ولا يعتذر، والمنافق كل يوم يسئ ويعتذر.

– اعلموا أن حوائج الناس إليكم من نعم الله عز وجل عليكم، فلا تملوا النعم فتعود النقم.

– لا تتكلف ما لا تطيق، ولا تتعرض لما لا تدرك، ولا تعد بما لا تقدر عليه، ولا تنفق إلا بقدر ما تستفى، ولا تطلب من الجزاء إلا بقدر ما صنعت، ولا تفرح بما نلت من طاعة الله، ولا تتناول إلا ما رأيت نفسك أهلا له».

وعندما سأله رجل كيف أصبح قال :

أصبحت ولى رب فوقى، والنار أمامى، والموت يطلبنى، والحساب محدق بى، وأنا مرتهن بعملى، لا أجد ما أحب، ولا أدفع ما أكره، والأمور بيد غيرى، فإن شاء عذبنى، وإن شاء عفا عنى .. فأى فقير أفقر منى !

بهذا الأسلوب الجميل .

وبهذه المعانى الراقية الشفافة.

وبهذه التجليات التى تفوح بالإيمان والحكمة وفهم أمور الحياة، بما مر عليه من تجارب، وما تغلغل فى أعماق نفسه من أنوار البنوة .. كان الإمام الحسين صورة تجسد كل ما فى الإسلام من قيم الحق والخير والجمال .. والعدل والإيثار .. وأن يعيش بالمبادئ وللمبادئ .. فلم يؤثر عنه المداهنة أو النفاق أو السعى وراء مغانم رخيصة ..

ولكنه عاش وفى قلبه منهج القرآن، وسنة جده -عليه الصلاة والسلام- .. فعاش حياته كلها ينشد الحق ويسعى إليه، ويكره الباطل ويحاربه .. وما موقفه بعد ذلك عندما قرر أن يتصدى لظلم بنى أمية، والوقوف فى وجه يزيد، واستشهد فى سبيل المبدأ ..

وكان يمكنه لو أراد أن يعيش فى ترف من العيش، وفى رغد من المال، لاستطاع ولأعطاه الحكم الأموى ما يريد على ألا يقف فى طريقهم، ويفند أكاذيب حكمهم الذى ابتعد عن الحكم الذى انتهجه الراشدون من الخلفاء ..

لو أراد ذلك ما كلفه ذلك إلا الصمت عن الخوض فى سياسة الدولة الأموية المتمثلة فى يزيد بن معاوية، ولكن رفض أن يرى الظلم ويسكت.

ورفض أن يرى الباطل يرتفع له لواء ويصمت، ورفض أن يرى الحكم بالكتاب والسنة قد خفت ثم يلوذ بالصمت.

ورفض أن يشاهد المظالم علىٰ أشدها .. وأموال المسلمين تغدق بلا حساب على الأعوان وطلاب السلطة، والمتخلقين لها يبغون السلطان ويضع يده فى أذنيه.

لقد قرر أن يقوم بثورة .. أن يغير من الصورة القاتمة التى عششت على العالم الإسلامى فى فترة حكم يزيد بن معاوية !

هل كان يعرف أنه يستطيع أن يتغلب على الدولة الأموية فى أوج قوتها وعنفوان سلطانها ؟! وهى التى قهرت فارس والروم .

وهل حسب أن بقدرته أن يقضى على دولة لها جيوشها القوية، ويدها المتمكنة من أعناق الناس، ولها سطوة الحكم، وجبروت السلطة ؟

هل كان اندفاع من الإمام الحسين أن يذهب ليحارب قوى عاتية تملك السلاح .. والرجال .. ويخر تحت أقدامها طلاب النفوذ والجاه والمال .. وهل كان يتصور أن ينتصر وسيوف الناس معهم حتى لو كانت قلوبهم معه ؟

أم أن الأقدار قد كتبت عليه أن يكون دمه الشريف نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى كله؟ فإن دم الإمام الحسين لم يضع عبثا، فقد انهارت الدولة الأموية بعد أقل من قرن واحد .. ولتظل بعد ذلك العبرة بأن الحق دائما يعلو فى النهاية مهما كانت أشواك الطريق.

إن النظر إلى موقف الإمام الحسين من خلال النظرة إلى الحوادث التى تمر بدنيا الناس، ربما لا يكون نظرا سليما، فإن لموقف الإمام الحسين بُعد إيمانى غيبى ..، فقد كان عليه أن يطلق صيحته بأن يكون الحكم شورى بين المسلمين كما أقره الإسلام، وأن الديكتاتورية وحكم الفرد مما يأباه الإسلام، وأنه لتقويم الأوضاع لابد من الضحايا .. لابد من الدم والدموع .. حتى لا يترك الباطل يرفع فى أرض الله.

وحتى لا نترك سلوكيات الناس حسب الأهواء.

لقد كان الإمام الحسين يوقن بقوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) ﴾ [آل عمران].

وقد أخرج الإمام أحمد فى مسنده، هذا الحديث الشريف :

عن أم سلمة قالت :

رأيت رسول الله ﷺ وهو يمسح رأس الحسين ويبكى.

فقلت : ما بكاؤك ؟

قال : «إن جبريل أخبرنى أن ابنى هذا يقتل بأرض يقال لها كربلاء».

قالت : ثم ناولنى كفا من تراب أحمر وقال : «إن هذا من تربة الأرض التى يقتل بها، فمتى صار دما فاعلمى أنه قد قتل».

قالت أم سلمة : فوضعت التراب فى قارورة عندى، وكنت أقول : أن يوما يتحول فيه دما ليوم عظيم.

وفى رواية أخرى عن أم سلمة قالت :

كان جبريل عند النبى ﷺ والحسين معى، فبكى فتركته فذهب إلى رسول الله ﷺ فقال له جبريل : أتحبه يا محمد ؟

قال : «نعم».

قال : إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التى يقتل بها، فبسط جناحه إلى الأرض فأراه أرضا يقال لها كربلاء !

ورويت أحاديث كثيرة بصيغ مختلفة يتجمع فى مضمونها على أن النبى ﷺ قد تنبأ بقتل حفيده الحسين فى كربلاء والحديث بلا شك قد عرفه أهل البيت، حتى أن ابن عباس قال :

ما كنا نشك وأهل البيت متوافرون أن الحسين بن علىّ يقتل بالّطف.

والإمام الحسين كان يعرف بلا شك أمر حديث جده -عليه الصلاة والسلام-، ومن هنا فقد خرج غير هياب ولا وجل.

أترى قد قدر على الإمام الحسين ما قدر على والده الإمام علىّ كرم الله وجهه.

فقد تنبأ الرسول ﷺ للإمام على بأنه سيقتل.

فقد مرض فى شبابه مرضا شديدا، وذهب النبى ﷺ ليزوره أثناء هذا المرض، وكان عنده أبو بكر وعمر، وهمس أبو بكر للرسول أن عليا سيموت فى مرضه هذا، ولكن الرسول ﷺ قال له :

«إن عليًا لن يموت فى مرضه هذا، وهو لن يموت ولكن سيقتل بعد أن يتجرع الغيظ !!».

وتحققت نبوءة الرسول .. فقد نجا علىّ من هذا المرض .. ومرت أيام الرسول وأبى بكر وعمر وعثمان، وبويع بالخلافة، وحارب معاوية الذى رفض مبايعته وكاد ينتصر عليه فى (صفين) لولا خدعة « التحكيم» وانشق عليه الخوارج، وتخاذل أهل العراق عن نصرته، فيجرع الغيظ كما تنبأ له الرسول ﷺ ، حتى أنه قال وهو يرى تخاذلهم فوضع المصحف فوق رأسه وقال :

اللهم إنهم منعونى أن أقوم فى الأمة بما فيه (المصحف) فأعطنى ثواب ما فيه.

اللهم إنى مللتهم وملونى .. وأبغضتهم وأبغضونى، وحملونى على غير طبيعتى وخلقى وأخلاق لم تكن تعرف لى !

اللهم فأبدلنى بهم خيرا منهم، وأبدلهم بى شرا منى، اللهم أمت قلوبهم موت الملح فى الماء».

وكان عبد الرحمن بن ملجم قد أخذ على نفسه عهدا بأن يقتل الإمام عليّ -رضى الله عنه-، وكان ابن ملجم هذا أحد ثلاثة من الخوارج قد عاهدوا أنفسهم بقتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص. وكان أن تعهد عمرو بن بكر بقتل عمرو بن العاص.

أما الذى تعهد بقتل معاوية فهو البرك بن عبد الله، وفشلت محاولة قتل كل من معاوية وعمرو بن العاص، فقد كان معاوية يحيطه الحراس، وما كاد الرجل يرفع سيفه الذى أصاب (إلية) معاوية حتى تكاثر الحراس وقبضوا عليه .. وعولج معاوية وشفى، وأما الذى حاول قتل عمرو بن العاص، فقد ضرب بسيفه (خارجة) الذى صلى بدلا من عمرو فى مسجده لمرض عمرو وقتل خارجه، وعندما جاءوا به إلى عمرو بن العاص أمر بقتله وقال كلمته الشهيرة:

- أردتنى وأراد الله خارجة.

أما ابن ملجم التى أغرته امرأة فاتنة من نساء الكوفة تدعى (قطام) بقتل الإمام عليّ لأنه قتل زوجها وأخاها يوم (النهروان) وأن هذا سيكون أهم شئ فى مهرها، وشاهد الإمام عليٌّ بن أبى طالب ابن ملجم وهو يعنى بسيفه ويسقيه السم، وكان يغدق عليه ويعطيه ما يريد من المال، وقد حذره أصحابه منه .. حتى أن الإمام سأله يوم :

- لم تسن سيفك ؟

- لعدوى وعدوك!

ولم يستسغ الإمام على نظرات الرجل إليه، وتذكر ما قاله له رسول الله ذات يوم .. فقد سأل النبى الإمام :

«يا علىّ من أشقى الأولين ؟

قال : الذى عقر الناقة.

قال النبى : «ومن أشقى الآخرين ؟».

قال : لا أدرى.

فقال له رسول الله ﷺ : «الذى يضربك على هذا (وأشار إلى رأسه) فيخضب هذه (وأشار إلى لحيته) !».

تذكر الإمام ذلك وتيقن أن قاتله هو ابن ملجم، حتى أنه كان كلما رآه قال :

- أريد حياته ويريد قتلى !!

إلى أن اغتاله هذا الرجل الخسيس عندما خرج لصلاة الفجر.. وكان كالعادة بلا حراسة فضربه ابن ملجم بسيفه .. تلك الضربة التى أنهت حياته !

وهذه الحادثة تبين الفرق الشاسع بين الإمام وبينه وبين غيرهم.

فبعد ما ضرب الإمام علىّ بالسيف المسموم، وطلب أن يأتوا بابن ملجم دار بينهما هذا الحوار :

- أى عدو الله ألم أحسن إليك ؟!

- بلى.

- فما حملك على هذا ؟

- شحذته (أى السيف) أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه!

- لا أراك إلا مقتولا به، ولا أراك إلا من شر خلقه .!

ولنرى عظمة الإمام علىّ .. إنه يأمر أصحابه أن يقتلوا قاتله إذا مات، أما إذا ظل على قيد الحياة فسوف يقرر بنفسه العقوبة وكانت وصيته لهم :

«احبسوه فإن مت فاقتلوه ولا تمثلوا به، وإن لم أمت فالأمر إلىَّ فى العفو أو القصاص ! النفس بالنفس .. إن هلكت فاقتلوه وأن بقيت رأيت فيه رأيى، يا بنى عبد المطلب لألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ! ألا لا يقتلن إلا قاتلى إن عشت فالجروح قصاص، وإن مت فاقتلوه، لكن احبسوه وأحسنوا».

قال ذلك والدماء تنزف من رأسه وتغطى لحيته، وطلب من أصحابه ألا يمثلوا به .. والفارق شاسع بين هذه الأخلاق، وأخلاق أصحاب يزيد عندما تمكنوا من الحسين فى كربلاء !

إنه الفرق بين الذين يريدون وجه الله، والذين لا يريدون إلا عرض الدنيا الزائل.

المذبحة

وكان لابد أن تبدأ هذه المذبحة.

حيث تقدم أصحاب الحسين بعد أن ابتدأوهم بالقتال .. يدافعون عن الحسين .. حتى تساقطوا فى المعركة بعد استبسال فى القتال أشبه بالمعجزات، وهم عطاش بعد أن حرموهم الماء .. ومع ذلك فقد استطاع أنصار الحسين أن ينزلوا الموت بأعدائهم مع كثرة هؤلاء الأعداد ..، وفى معركة غير متكافئة .. ودخل الحسين المعركة.. أسداً جسورا.. وفارسا مغوارا .. لا يخشى الموت .. وهو يحصد الرءوس، ويعمل فيهم قتلا.. ولا يستطيعون مواجهة الفارس النبيل، والبعض يخشى مواجهته حتى لا يقابل الله مطالبا بدم سيد الشهداء !

وأخذ الحسين يقاتل طوال يومه .. رغم سقوط الأهل والأحباب والأبناء .. وكان من المشاهد المأساوية والتى تدعو إلى الإعجاب فى نفس الوقت أن ابن الحسين (علىّ) الذى لم يتجاوز التاسعة رعشرة من عمره، أخذ يقاتل بشجاعة منقطعة النظير وهو يردد :

«أنا علىّ بن الحسين بن علىّ.

ونحن ورب البيت، أولى بالنبى.

تالله لا يحكم فينا ابن الدعى».

إلى أن سقط شهيدا ..

وتساقط أبناء البيت النبوى الواحد بعد الآخر بعد جهاد رائع وعظيم.

ويرى الحسين ابن أخيه الصغير القاسم بن الحسن يخرج بسيفه .. فتتهاوى عليه السيوف. فيصيح مستنجدا بعمه الإمام الحسين، ويسرع إليه الحسين ويهوى بسيفه على قاتليه فيفرون كالجرذان، وينظر الحسين إلى ابن أخيه الصغير وهو يجود بأنفاسه الأخيرة، وتتساقط الدموع من عينيه :

«عزيز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك فلا ينفعك فى يوم كثر واتره وقل ناصره».

ولكنه الحسين ..

إنه يخوض معركة يعرف تماما أن النصر فيها لأعداء الحق والفضيلة وكل القيم النبيلة .. وأن هذا هو قدره .. وهذا هو دوره .. أن يكون دمه منارة تهدى ليالى الحيارى والتائهين.

لقد وجد الإمام نفسه يقاتل وحيدا فى الميدان .. بعد أن سقط الجميع على أرض المعركة بقى وحده يقاتل وحوشا لا تعرف أنها تحاول قتل أحب أهل الأرض إلى أهل السماء.

ويتكاثر عليه هواة الضلال وأتباع الشيطان، حتى اثخنوه بالجراح، والتفت إليهم الحسين وقال لهم :

«أعلى قتلى تجتمعون .. إنى لأرجو الله أن يكرمنى بهوانكم، ثم ينتقم لى من حيث لا تشعرون».

ويري عمر بن سعد المشهد، ويسمع صوت السيدة زينب تقول له :

- أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه ؟

فيهرب الرجل من نظراتها ويبتعد وقد غلبته الدموع !!

ويأمر شمر بن ذى الجوشن أتباعه بضرب الحسين بالرماح عن بعد .. حتى سقط الحسين مضرجا فى دمائه، بعد أن ضربه زرعة ابن شريك التميمى على يده اليسرى وقطعها .. وتقدم غيره فضربه على عاتقه فسقط فى أرض المعركة .. ولكنه رغم كل هذه الجراح والآلام كان يقوم محاولا القتال، وهم يضربوه بالرماح والسيوف حتى لفظ أنفاسه الأخيرة !

ويقول الرواة أن الحسين – رضي الله عنه – عندما قتل وجدوا به آثار ثلاث وثلاثين طعنة وأربع وثلاثين ضربة !!!

وحاول خولى بن يزيد الأصبحى أن يجتز رأسه ولكنه لم يستطع فقد تملكته رعدة، فقال له ابن ذى الجوشن :

فت الله فى عضدك !

وتقدم سنان بن أنس فاجتز رأسه ودفعه إلى خولى بن يزيد.

وهكذا انتهت المعركة بمصرع آل البيت ، وبلغ الذين قتلوا من معسكر ابن زياد ثمانية وثمانين رجلا غير الجرحى.

وكان هذا اليوم .. يوم العاشر من المحرم .. يوم عاشوراء .. من أحزن أيام التاريخ.. فما كادت شمسه تميل نحو مغيبها الحزين، وهى تلملم أشعتها التى شاهدت هذه المجزرة، إلا وكانت جثث الضحايا تغطى أرض كربلاء.. ولم تشهد الشمس يوما عصيبا كهذا اليوم .. حيث وسد جسد الإمام الحسين وصحبه على أرض كربلاء..

وقد وسد الجسد الطاهر وأجساد العترة من آل البيت التراب فى اليوم التالى عندما أخذ جماعة من بنى أسد على عاتقهم مهمة مواراتهم

التراب !..قاموا بذلك ليلا تحت أضواء القمر الباهت .. وليصبح هذا المكان مزارا يزار .. يقف الناس أمامه متذكرين جلال البطولة وروعة الاستشهاد .. حيث يوجد الآن المشهد الحسينى الذى يتردد عليه الناس ذاكرين بطولة الشهيد العظيم .. حفيد أعظم رسل الله وبطل كربلاء.

الموكب الحزين

حينما لملمت الشمس أشعتها فى مساء اليوم العاشر من محرم من عام ٦١ هـ كانت أرض كربلاء متناثر على رمالها جثث أطهر أهل الأرض من أبناء بيت النبوة، ولم يبق إلا النساء وعلى رأسهم أخت الإمام الشهيد السيدة زينب وصبى صغير وهو علىّ بن الحسين الذى شاء له القدر أن ينجو من الموت المحقق لمرضه وأن تكون منه ذرية الإمام الحسين.

وسيق آل بيت الرسول الكريم أسرى إلى عبيد الله بن زياد قاتل أبناء النبيين، والذى كان يتباهى بذلك تقربا وزلفى من سلطان بنى أمية.

وتبلغ الخسة مداها حين يأخذون أسراهم ويمرون بهم على جثث الضحايا .. الأمر الذى لم تطق معه السيدة زينب - رضى الله عنها - صبرا أمام هول الأحداث التى مرت بها، فلم يكف هؤلاء الناس لاقته السيدة الطاهرة من فواجع وهى ترى أخاها يقتل وتدوس الخيول على صدره، ولم يرحموا ماهى فيه من آلام فوق طاقة البشر، فأبو إلا أن يمروا بهم وسط الشهداء، وعندما رأت هذا المشهد الأليم لم تتمالك وصاحت :

يا محمداه .. يا محمداه .. صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء، مرمل بالدماء، مقطع الأعضاء .. يامحمداه وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفى عليها الصبا».

ويمضى الموكب الحزين إلى قصر ابن زياد.

وابن زياد قد ملأه الغرور وكأنه حقق انتصاراً عسكريا كبيرا، وغرته الأمانى حتى أنه أخذ ينكث بقضيب بيده شفتى الحسين والناس حوله، حتى ثار عليه زيد بن أرقم قائلا له :

لعل بهذا القضيب عن هاتين الثنيتين فوالذى لا إله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الشفتين يقبلها.

وعندما بكى الشيخ بعد أن أفصح أمام هذا الطاغية بكلمة حق، فطرده ابن زياد من مجلسه، وخرج الرجل وهو يقول : قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعدا لمن رضى بالذل.

ودخل الموكب الحزين على هذا الحاكم الظالم وكأنما ينبوع الخسة عنده لا ينفذ فقال للسيدة زينب – رضى الله عنها – :

الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم.

قالت السيدة زينب :

الحمد لله الذى أكرمنا بمحمد ﷺ وطهرنا تطهيرا، لا كما تقول أنت إنما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر.

قال : فكيف رأيت صنع الله بأهل بيتك ؟

قالت : كتب عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم، فتحاجون إليه وتخاصمون عنده.

قال غاضبا :

قد أشفى الله نفسى من طاغتيك، والعصاة المردة من أهل بيتك.

قالت وقد ملكها الحزن العميق : لعمرى لقد قتلت كهلى، وأبرزت أهلى، وقطعت فرعى، واجتثثت أصلى، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت.

قال : هذه شجاعة، لعمرى كان أبوك شاعرا شجاعا.

قالت : ما للمرأة والشجاعة إن لى عن الشجاعة لشغلا ولكن نفسى وما أقول.

ورنا ببصره إلى علىّ بن الإمام الشهيد وأراد قتله فتعلقت به عمته السيدة زينب وطلبت أن تقتل معه.

وتكرر المشهد عندما يذهبون بالسبايا من آل البيت إلى يزيد بن معاوية ويحملون معهم رءوس الشهداء .. يبغون الحظوة عنده.

ويقول الرواة أن يزيد قال لمن هرولوا إليه يبشرونه بقتلهم آل البيت :

قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سميه[1]، والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه، فرحم الله الحسين.

وأغلب الظن أن ماوراه الرواة عن تأثر يزيد بقتل الحسين وأنه لم يأمر بذلك ولا عرفه إلا عندما جاءته رءوس الشهداء ليس صحيحا.. فليس من المعقول أن يكون حريصا على بيعة الحسين ويرسل إليه واليه فى المدينة ليأخذ له البيعة منه، ويحرص معاوية بن أبى سفيان قبل ذلك على أهمية أن يبايع الحسين يزيد بالخلافة ..

فكل هذا الحرص نابع من مكانة الحسين، وأنه من الممكن أن يواجه الأمويين ويطالب بالأمر له، ليس من المعقول أن يعرف يزيدكل هذه الأهمية للحسين ثم لا يعرف من أمر تحركه شيئا منذ خرج من مكة قاصدا الكوفة، ويفاجأ بأنه ذهب إلى كربلاء وقتل هناك.

---

(١) سميه أم زياد هذا كانت بغيا فى الجاهلية وكانت عشيقة لأبى سفيان بن حرب لعن الله ابن زياد وقتله الحسين.

وليس من المعقول ولا من المنطق أن يعرف واليه على الكوفة عبيد الله بن زياد بقدوم الحسين ويعد العدة للتصدى له والفتك به دون علم يزيد ؟ ليس من المنطقى أن يتصدى له، ويفعل كل ما فعل من تلقاء نفسه .. وهو يعرف كم كان يزيد حريصا على أخذ البيعة من الحسين، وإذا كان أهل الحجاز قد عرفوا أن الحسين خرج متوجها إلى العراق.

وإذا كان أهل العراق قد علموا بقدومه .. فهل كان يخفى على الخليفة نفس هذا الأمر .. وأين ولاته وجواسيسه فى كل الأنحاء.

وهل يمكن أن ينسى يزيد ما أمره به أبوه وهو فى ساعة احتضاره بقوله :

أنظر حسين بن علىّ بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فإنه أحب الناس إلى الناس، فَصِلْ رحِمه، وأرفق به، يصلح لك أمره، فإن يكن منه شئ فإنى أرجو أن يكفيه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه».

هل يمكن ليزيد أن ينسى وصية أبيه له، وهو الذى نصحه وهو على فراش مرضه الأخير هذه النصيحة لأنه يعلم خطر الحسين ومكانته فى نفوس الناس ! ليس من المعقول ألا يكون قد عرف بتحركات الحسين وتوجهه إلى العراق، ولم يعرف لك إلا عندما وصل بعض المنافقين وكلاب السلطة يبشرونه بموت الحسين !

ولم يكن الحسين واحدا عاديا من الناس ليس له خطره ولا مكانته، حتى يقتص منه عبيد الله بن زياد، وينتهى من أمره بسهولة ويسر، ولكنه يعرف مكانته ومن هنا فقد أرسل رأسه ورءوس أصحابه ليزيد حتى ينال الحظوة والرضا العالى !!

وإذا حدث ما يرويه بعض الرواة بأن يزيد قال قولته هذه بأنه لم يكن يرغب فى موته، ولو كان مكان ابن زياد ما قتله، فإن هذا يكون من قبيل الدهاء وأكاذيب السياسة.

وقد كان يزيد بن معاوية سياسيا، وكان ذكيا، وكان داهية، وقد اكتسب من أبيه معاوية بن أبى سفيان هذا الدهاء السياسى، رغم ما كان عليه من مجون ومعاقرة الخمر، واللهو والعبث، وضياع وقته فيما لا يفيد.

وكان أيضا شاعرا، نسبوا إليه العديد من القصائد، منها قوله متغزلا:

خذوا بدمى ذات الوشاح، فإننى رأيت بعينى فى أناملها دمى

ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها بلى، خبروها بعد موتى بمأتمى

رجل له هذا الدهاء السياسى، وله الحس الشعرى، لم يكن أبلها، ولا ساذجا، وإلا فكيف يقول ما قاله على أنه لم يكن ليقتل الحسين لو ظفر به ونصدقه، ولم ترو كتب التاريخ عنه أنه قام بتأنيب عامله عبيد الله بن زياد، أو عمر بن سعد، أو ابن ذى الجوشن أو غيرهم من الذين قاموا بهذه المذبحة البشعة وانتهكوا حرمة بيت الرسول الكريم ..!

ولم يؤثر عنه أنه حتى سألهم لماذا فعلوا ما فعلوه! بل أن الحوار الذى دار بينه وبين آل الحسين، كان فيه اللين ممتزجا بالشدة، وفيه أيضا التشفى بما حدث مغلفاً بدهاء الساسة.

لقد قال يزيد عندما رأس رءوس الشهداء :

يفلقن هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

ولقد قال يزيد لعليّ بن الحسين بعد أن دعاه وأهله إلى الحضور لديه، وكان معه بعض أتباعه :

يا على أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى، ونازعنى سلطانى، فصنع الله به ما قد رأيت !

قال عليّ زين العابدين : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)﴾ [الحديد].

قال يزيد : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ (٣٠)﴾ [الشورى].

ونظر فرأى الحالة السيدة التى كان عليها نساء بيت النبوة وقال :

قبح الله ابن مرجانة، لو كان بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم هكذا ..!

وتبلغ المأساة ذروتها، يوم يرى أحد الحضور فى هذه الجلسة الحزينة فاطمة بنت الحسين، فطلب من يزيد أن يهبها له !!

فتقول له السيدة زينب – رضى الله عنها – :

كذبت والله ولؤمت ما ذلك لك ولا له.

وبدل أن يلومه يزيد ويؤنبه وجه كلامه للسيدة زينب قائلا لها :

كذبت والله، إن ذلك لى، ولو شئت أن أفعله لفعلت !!

قالت له :

كلا والله .. ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا.

ولكن يزيد تمادى فى قهره، وخرج عن كل مألوف عندما قال لها :

إنما خرج من الدين أبوك وأخوك !

قالت له : بدين الله ودين أبى ودين أخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك.

– كذبت يا عدو الله ؟!

– أنت أمير مسلط، تشتم ظالما، وتقهر بسلطانك.

ويبدو أن كلمة السيدة زينب، بأنه ما كان يجرؤ أن يخاطبها بهذا المستوى الهابط من أدب الحوار، إلا لأن له سلطان يقهر به الناس .. فخجل.

وأمر بتجهيز آل البيت للعودة إلى المدينة ..! بعد أن دعاهم إلى بيته، حيث قابلهم آل يزيد بما يليق ببيت النبوة.. وأحسن استقبالهم، وبعث من يقوم بحراستهم حتى أبواب المدينة، وعندما أرادوا إكرام هذا الرجل الذى كان يراعى طوال الطريق حرمة آل البيت، ويتودد إليهم ويواسيهم، لم يجدوا ما يكرمونه به، فإذا الرجل يقول لهم إنه فعل ما فعل حبا فى رسول الله وابتغاء المثوبة من الله.

ويقول الرواة: أن يزيد قال لبعض من حوله والرأس الشريف بين يديه:

– أتدرون من أين أتى هذا ؟

إنه قال : أبى علىّ خير من أبيه، وأمى فاطمة خير من أمه، وجدى رسول الله خير من جده، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر.

فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ..!

وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى.

وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا بدلا ولا ندا.

ولكنه أتى من قلة فقهه ولم يقرأ : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران].

ومن خلال مسار الأحداث التى مرت يتضح أن معالجة أمر الحسين، وقتاله وقتله من المستحيل أن تكون الأحداث قد تسارعت، مما أدى إلى قتله -كما قلنا- دون الرجوع إلى يزيد نفسه، ليقول فيه رأيه.

ولكن يزيد -كما قلنا أيضا- لم يكن بالخليفة الساذج رغم لهوه وعبثه، وأنه أخذ من أبيه الكثير، وأبوه هو الذى رددت الأجيال كلماته الدالة عن بعد نظره، وعمق نظرته للأمور، وقدرته على أن يسوس الناس عندما قال :

لو كان بينى وبين الآخرين خيط ما قطع، إذا شدوا أرخيت، وإذا أرخو شددت !!

ومن قبل هذا الدهاء ما قاله يزيد وهو يودع علىّ بن الحسين وهو فى طريقه إلى الحجاز وقال له :

لعن الله ابن مرجانه.

أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبدا إلا أعطيته إياها، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن الله قضى ما رأيت يا بنى ! كاتبنى من المدينة وأنه إلىّ كل حاجة تكون لك.

منتهى الدهاء السياسى .. الذى يقتل القتيل ويمشى فى جنازته كما يقولون !!

ولكن هذا الدهاء خانه يوم أمر بسفك دماء الحسين وآل البيت، كان حقده على الحسين أكبر من دهائه، وأكبر من نصائح أبيه !!

كيف غاب عنه وصية أبيه له :

يا بنى إنى قد كفيتك مئونة الترحال، ووطأت لك أعناق الرجال، فعليك بأهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار.

وأما أهل العراق فدارهم ما استطعت وإن طلبوا منك أن تعزل عنهم فى كل يوم عاملا فافعل، فإن عزل رجل واحد خير من سل مائة ألف سيف، ولا تدرى على من تكون الدائرة.

ولست أخشى عليك فى هذا الأمر غير الحسين بن علىّ وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير.

فأما الحسين فرجل خفيف، وما أرى أهل العراق إلا مخرجيه، فإن هو خرج عليك وظفرت به فاعف عنه فإن له رحما ومقاما عظيما، وقرابة من النبى ﷺ.

وأما ابن عمر فرجل قرقره الورع، ووقذته العبادة، فإن خليت بينه وبين دينه، خلى بينك وبين دنياك.

وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويروع منك روغان الثعلب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها فمزقه إربا! إلا أن يلتمس منك صلحاً، واحقن دماء قومك ما استطعت ».

كان معاوية .. رجل دولة .. وكان رجل سياسة .. وكان على علم بأقدار الرجال ..!

وعندما أوصى ابنه بما أوصى له به كان كأنه يقرأ من كتاب مفتوح.

فالحسين قد خرج عندما جاءته رسائل أهل العراق ولكنهم خذلوه، ولم يراع يزيد ما أوصاه به أبيه من أن يرعى حرمة الحسين لنسبه من رسول الله.

وأما ابن عمر فهو رجل تقى ورع لا يريد أن يشق عصا الطاعة ولا عصا الجماعة، فهو مع الناس فيما اتفقوا عليه، والمهم عنده أن يتركوه لعبادته.

أما عبد الله بن الزبير فكان بالفعل كما وصفه معاوية ثعلب ماكر، فكان أمله كما يقول الرواه أن يخلو له الجو، فكان ينصح الحسين بالرحيل إلى العراق، وفى الوقت نفسه يعود بنصحه أن يظل فى مكة ويقول له :

«ولكن إذا شئت أقمت ونحن نناصحك ونبايعك».

كانت خريطة الوضع واضحة المعالم، بينه القسمات أمام يزيد .. والصورة ليست فى حاجة إلا إلى حسن السياسة، وصياغة الأمر بالحكمة،

كما أوصاه معاوية .. ولكن لم يفعل ذلك، فقد ضيق الخناق على الإمام الحسين، حتى انتهت حياته فى كربلاء.

وهذه المأساة التى هزت العالم الإسلامى كله عندما وقعت بهذا الشكل البشع ؟! حتى أننا نرى معاوية بن يزيد، وكان تقيا ورعا يرى ما يرى من بشاعة هذا الجرم فيبكى .. فيسأله يزيد ماذا يبكيه فيقول له :

والله لا أبكى أسى على ما فات، وإنما أبكى جزعا على ماهو آت !!

ويروى الرواة أن أم المؤمنين أم سلمة هى أول من علمت مقتل الحسين، واختلفت الروايات فى ذلك، فمن قائل أنها شاهدت النبى – ﷺ – فى رؤيا لها، وكان على لحيته التراب، وعندما سألته عما حدث قال لها :

كنت أدفن ابنى الحسين.

فعرفت أن الحسين قد قتل.

وهناك رواية أخرى تقول أن النبى فى حياته كان قد أعطاها قارورة بها تراب وقال لها : إذا استحال هذا التراب دما فاعلمى أن الحسين قد قتل !

مهما يكن من شئ فقد قتل الحسين مظلوما .. ولم يراعوا فيه حرمة .. ولكن استشهاده كانت صيحة مدوية فى مختلف أرجاء العالم العربى.

هناك من طالب بدم الإمام الشهيد.

وهناك من ثار على بنى أمية إلى أن انتهت نهاية دولتهم نهاية مأساوية رهيبة.

وهناك من تشفع لآل البيت، إلي أن ظهرت الدولة الفاطمية فى المغرب العربى وفى مصر .. وظهرت الانقسامات حول من يكون له حق الحكم .. إلى أن خلفت الدولة الأموية الدولة العباسية وأخذ التاريخ مسارات جديدة.

ولكن السؤال الذى يفرض نفسه، أين ذهبت رأس الحسين، وكيف جاءت إلى القاهرة ؟ على أساس أنه لا خلاف بين المؤرخين والرواة أن الجسد الشريف قد دفن فى مكانه فى كربلاء فى مشهده المعروف هناك !

ولكن الخلاف حول مكان الرأس.

فهناك من قال أن الرأس قد دفنت مع جسد الإمام الحسين بعد فترة من الزمن.

وهناك من قال أن الرأس بعث بها إلى المدينة حيث دفنت بالبقيع بجانب أمه فاطمة الزهراء.

وهناك من يقول أن الرأس وجدت فى خزانة ليزيد بعد وفاته فأخذت الرأس ودفنت فى دمشق.

وهناك من يقول أنها دفنت فى عسقلان بعد أن طافوا بالرأس الشريف فى مختلف الأنحاء.

يقول الشعرانى :

«إن الوزير صالح بن طلائع بن زريك خرج هو وعسكره حفاة إلى الصالحية، فتلقى الرأس الشريف ووضعه فى كيس من الحرير الأخضر على كرسى من الأبنوس، وفرش تحته المسك والعنبر والطيب، ودفن فى المشهد الحسينى قريبا من خان الخليلى فى القبر المعروف».

ويقول بعض الرواه أن الذى وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة واليها، وحصل فى القصر يوم الثلاثاء، العاشر من جمادى الأخرى وقالوا :

أن هذا الرأس الشريف لما أخرج من المشهد بعسقلان، وجد دمه لم يجف، وله ريح كريح المسك .. وعندما جئ به إلى مصر دفن فى قصر الزمرد، وهو المكان المعروف الآن بالمشهد الحسينى.

وقال ابن عبد الظاهر :

«مشهد الإمام الحسين، صلوات الله وسلامه عليه، قد ذكرنا أن طلائع بين زريك المنعوت بالصالح كان قد قصد نقل الرأس الشريف من عسقلان، لما خاف عليها من الفرنج، وبنى جامعه خارج باب زويلة ليدفنه به، ويلوذ بهذا الفخار، فغلبه أهل القصر على ذلك وقالوا : لا يكون ذلك إلا عندنا، فعمدوا إلى هذا المكان وبنوه ونقلوا الرخام إليه وذلك على يد طلائع فى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

ويقول الأستاذ عباس العقاد : وهو يحدثنا عن الاختلاف حول مكان الرأس الشريف :

« ..... فالأماكن التى ذكرت بهذا الصدد ست مدن هى : المدينة، وكربلاء، والرقة، ودمشق، وعسقلان ، والقاهرة .. وهى تدخل فى بلاد الحجاز والعراق والشام، وبيت المقدس والديار المصرية .. وتكاد تشتمل على مداخل العالم الإسلامى كله من وراء تلك الأقطار، فإن لم تكن هى الأماكن التى دفن فيها رأس الحسين فهى الأماكن التى تحيا به ذكراه لا مراء.

وللتاريخ اختلافات كثيرة نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال .. ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين – عليه السلام –، فأيا كان الموضع الذى دفن به ذلك الرأس الشريف، فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف .. وإنما أصبح الحسين – بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية – معنى يحضره الرجل فى صدره وهو قريب أو بعيد من قبره.. وأن هذا المعنى لفى القاهرة، وفى عسقلان وفى دمشق، وفى الرقة، وفى كربلاء، وفى المدينة، وفى غير ذلك الأماكن سواء».

الفهرس